مسعود حسین





الهيئة العامة لقصور الثقافة
GENERAL ORGANIZATION for
CULTURE CENTERS

مشهورون منسيّون

فتحى رضوان

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة
18

★ **مشهورون منسيون**

★ **فتحى رضوان**

★ الطبعة الثانية

★ مطبوعات الهيئة (18).

★ القاهرة 1998

★ رقم الايداع :16514/ 98

★ الطبعة الأولى :

كتاب اليوم - مؤسسة أخبار اليوم

أكتوبر 1970

★ شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : 3904096

سلسلة
مطبوعات الهيئة

المراسلات:
باسم مدير التحرير على العنوان التالي
16 1 شارع أمين سامي - القصر العيني -
القاهرة - رقم بريدي 11561

مقدمة

نعم، مشهورون منسيون،

وإن بدا هذا العنوان، متناقضا بعضه مع بعض فالمشهورون ينساهم الناس، كما نسوا المغمورين المجهولين وإن كانوا ذوى فضل،

فمن المشهورين، من تأفل شمسه، ويغرب نجمه، ويهلك مجده، فاذا هو فى حياته، مجهول، لا يعرفه الناس، ومنهم من ينساهم الناس بعد موتهم، أو ينسون جانبا من حياتهم، ومن هذه الكواكب الآفلة من يقبل الامر الواقع، ويرتضيه ويجد فى نسيان الناس، لونا من الرياضة الصوفية، إذ يرى فى العزلة والجحود، تطهيرا للنفس من الغرور، وكفا لها عن السعى الباطل فى الحياة، وتعاليا على اللذائذ الزائلة الفارغة، لذائذ الشهرة وبعد الصوت، وكثرة المريدين، وطلاب الحاجات، ويلقون فى ذلك راحة نفس، وبال، ومنهم من تملأ الوحدة وانصراف الناس عنهم حياتهم مرارة ووحشة فيرفضون الامر الواقع، ويسلمه احساسه بالمرارة والشعور إما بالتمرد، على

المجتمع، والكفر بالانسان، فلا ينفكون يسبون الدنيا، ويلعنون الدهر، ويخاشنون من يتصل بهم، ويشتدون فى معاملته ويغلظون فى القول له. وإما يرون أن مجدهم يمكن أن يعود إليهم، لو أنهم طاردوا الناس بالحديث عن ماضيهم، وتذكيرهم بأياديهم وغالبا ما تحول هؤلاء الى ثرثارين، لا يجدون اثنين الا وأخذوا يحاضرونهما عن هذا الماضى المنتهى. ويطلعونهما على وثائق مجدهم، ومستندات عزهم. وتزيد هذه الثرثرة على الايام حتى تستحيل الى مرض، فيفر أصحابهم منهم، ويفعلون فى ذلك السبيل، أمورا هى الى الفكاهة والمآزق المسرحية أقرب.

ومن المنسيين من يسلمهم المجد الذابل، الى كآبة وصمت، فيسيرون بين الناس، وكأنهم أشباح، يسمعون الكلام ولا يردون عليه، ويرون مباهج الدنيا، ولا يشاركون فيها.

والمشهورون الذين يدور عليهم الكلام فى هذا الكتاب، هم منسيون بدرجات متفاوتة. فمنهم من غمط حقه، فلم ينتبه الناس الى كامل أثره، ولم يدركوا كل فضله، ومنهم من نسى جانب كامل من حياته، ومنهم من لمع اسمه لمعانا شديدا لفترة، ثم أصبح واحدا من كبار المصريين العاديين الذين لا يتميزون عن سائر الكبراء من الوزراء والاغنياء بشىء، فلم يعد احد يذكر لماذا انطفأ هذا الانطفاء السريع.

ومنهم من خرج من دائرة النور، قبل وفاته، فلما مات لم يعد اسمه يجرى على لسان، ولم يلتفت اليه مؤرخ، ولم يعترف بنصيبه فى توجيه الامور فى الفترة التى كان فيها زعيما لحركة أو قائدا لهيئة، أو مبشرا بفكرة.

فمحمد فريد الذى بذر فى فترة زعامته، من أفكار التقدم السياسى والاجتماعى، ما لم يبذر أحد، والذى شرق وغرب، مدافعا عن وطنه، ومبشرا بالعدل الاجتماعى، وموسعا نطاق كفاح مصر السياسى فى المجتمعات الدولية، والذى تفرد بين الساسة المصريين، بالاهتمام بشئون أفريقيا، وبتحليل أهدافها السياسية، والذى حضر لثورة سنة ١٩١٩، وهيأ قادتها الشبان للكفاح والعمل لم يُذكر كما كان يجب أن يذكر خلال ثورة سنة ١٩١٩ ولم يعط حقه بعد ذلك، حتى حينما ذكره الذاكرون وأطلقوا اسمه على الشوارع والمدارس، بفضل إلحاح بعض تلاميذه واجتهادهم؛ فان الناس لم تعرف بالضبط ما الذى فعله محمد فريد لبلاده، وما هى عناصر عظمته، فأعظم ما قاله الكتاب عنه. أنه كان ابن باشا ثرى، وأنه ضحى بالثروة والراحة والنفوذ من أجل بلده. ولم يلتفت أحد الى أن تضحية محمد فريد وإن كانت عظيمة إلا أن مواهبه العقلية والروحية، كانت فى مثل عظمة تضحيته، وقد تكون تضحيته دونها بكثير. مع أنه عانى الفقر والوحدة والوحشة. وآلام المرض والهزيمة والخيانة.

وعبد الرحمن الرافعي، يعرفه الناس جيدا، ويقرون له بفضل السبق الى تحرير تاريخ كامل لتاريخ مصر القومي من عهد ما قبل الحملة الفرنسية الى آخر يوم من أيام حياته ، إلا أن كتب عبد الرحمن الرافعي الاخرى التى كتبها فى مطلع حياته، الادبية والسياسية، نسيت تماما، فلم يذكرها أحد، مع أنها عملٌ أدبى جيد، ومع أن ما انطوت عليه، من الافكار والمبادىء والحقائق، جدير بأن يكسب لها مكانا بارزا فى المكتبة السياسية المصرية.

وقد كان عبد العزيز جاويش بطلا وطنيا مصريا إبان توليه تحرير جريدة اللواء، جريدة الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل، ثم جريدة العلم والشعب، وقد كان حبسه، والافراج عنه، ثم محاكمته والحكم عليه، أحداثا كبيرة فى حياةً أمته، احتفلت بها كأعظم ما تحتفل الامم بكفاح أبطالها، وما يتعرضون له من الاذى والاضطهاد.

فقد كانت المظاهرات تتجمع حول دار المحكمة التى يحاكم فيها، وكان يستقبل ويودع، كما يستقبل الابطال، وكان الشبان يجرون عربته بدلا من خيولها. ولما قضى فترة الحبس فى احدى القضايا اكتتب الشعب لشراء وسام من الحرير والذهب، فأهدى اليه فى احتفال عظيم، ولم يهد أحد مثل هذا الوسام من قبل، ولا من بعد. ثم قامت الحرب العالمية الاولى، وهاجر عبد العزيز جاويش الى تركيا، فكان له بسبب صلاته بالزعماء الاتراك العسكريين واعتمادهم عليه،

وثقتهم به، دور فى توجيه الشئون الدولية عموما، والشئون العربية الاسلامية خصوصا، من أعظم ما وهب المصريون فى الحياة الدولية. إذ أنه بعد وفاته ووفاة فريد، اقتصرت «القضية» المصرية على الحدود المصرية، وأصبحت نزاعا داخليا بين مصر وبريطانيا، وفقدت سماتها الدولية، وأنقطعت صلات زعمائها بالدوائر العالمية، وقلت معرفتهم بما يجرى فى العواصم الكبرى من تطورات سياسية وأاقتصادية واجتماعية، ثم وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها وعاد عبد العزيز جاويش الى بلاده، بعد أن زادت معرفته بالسياسة واتسعت ثقافته الدولية، وأصبح ممكنا أن يكون أكثر نفعا لبلاده، ولكنه لم يجد الفرصة، ولم تمنحه نفسه، من العون بعد ويلات وأهوال كابدها فى المنفى، ما يستأنف به دور الزعيم، فأصبح موظفا كبيرا من موظفى وزارة المعارف.

ومحجوب ثابت الذى بدأ حياته العامة مبكرا، فشغل إحدى وظائف التدريس فى كلية الطب، فى حين كانت هذه الوظائف وقفا على الاجانب بصفة عامة وعلى الانجليز بصفة خاصة. ثم خاض مهام السياسة، مسلحا بالاطلاع والقدرة البيانية، ككاتب وخطيب ومحدث وراوية، ثم سبق أكثر المصريين المشتغلين بالشئون العامة، إلى إدراك دور نقابات العمال فنظمها، وقادها، وخاصم الاحزاب من أجلها بعد أن أبلى بلاء حسنا أخذ ينسحب من الحياة العامة قليلا

قليلا حتى أصبح موظفا من موظفى الجامعة، وقنع من هذه الضجات التى صاحبت اسمه، ومن تلك المعارك التى خاضها بقلمه ونفسه، بوظيفة ضحى بأكبر منها وهو بعد شاب صغير، ينتظره مستقبل حافل.

فلما مات لم يذكره أحد.

وعبد الرحمن فهمى الذى قاد ثورة سنة ١٩١٩ وحده بحنكة وشجاعة ومثابرة، وزعماء الثورة الكبار خارج الوطن، على مدى عامين، نسيه الناس، وهو بعد على قيد الحياة ثم زاد نسيانه، بعد ذلك، حتى أصبح المرء فى حاجة الى شرح وبيان ليعرف السامعون، من هو عبد الرحمن فهمى، وماذا عمل، ومتى مات.

وعلى عبد الرازق الذى أثار كتابه (الاسلام وأصول الحكم) دوائر السياسة والدين والصحافة والأدب، والذى كان موقعه من مواقع الفكر الاسلامى فى بلادنا، ما كادت الضجة التى أثارها كتابه، تهدأ حتى اعتقل قلمه، فلم يعد يكتب، أو لم يعد يكتب فى شئون الدين، ما كان خليقا أن ينتج فيه، أثرا طيبا، مهما اختلفنا معه، ومهما ساء ظننا أو حسن فى دوافعه السياسية القريبة والبعيدة فقد كان كاتبا رصينا، حسن الاطلاع، حسن التمكن من اللغة..

هؤلاء هم المشهورون المنسيون، الذين إذا اجتمع تاريخهم، بعضه إلى بعض فى كتاب واحد، تكامل باجتماعه، تاريخ كامل

لبلادنا، بما فيه من خفايا لم تجل، وخفايا لم تكشف، وهذا هو القصد الأول، من ضم هذه الأجزاء إلى سفر واحد، فنحن نؤدى بهذا بعض الواجب لهؤلاء الذين خدموا بلادنا، فوفق بعضهم، وأخطأ التوفيق البعض، ولكنهم جميعا اجتهدوا، وأعطوا أحسن ما لديهم، غفر الله لهم ورفع شأن أمتنا، بقدر ما أحبوها، وجاهدوا فى سبيلها، وتمنوا لها العظمة التى تستحقها، والمجد، الذى ولد على أرضها، ونما على شاطىء نيلها.

فتحى رضوان

محمد فريد

في العشرين من يناير سنة ١٩٦٨، كمل قرن على ميلاد محمد فريد، الذى ولد فى القاهرة، لاحد كبار موظفى الدولة الذين اجتمع لهم جاه المنصب، ونفوذ الحاكمين، وثراء الاغنياء، فقد كان والده أحمد فريد باشا الذى اختير ليكون ناظرا للدائرة السنية فى سنة ١٨٨٦. وقد كانت الدائرة السنية تدير مساحة ضخمة من الاطيان التى كانت ملكا خالصا للخديو أسماعيل، وقد لعبت فيما بعد، حينما تدهور مركز مصر المالى، وكثرت ديون الاجانب عليه، دورا كبيرا، فى تسوية تلك الديوان، وفيما قدم لها من ضمانات.

ومحمد فريد لا يذكر اسمه، حتى يقول كل الناس أنه الزعيم الذى ضحى بماله وصحته وراحته واسرته، فمات منفيا فى الخارج، مريضا بعيدا عن الاهل والصحب، لا يجد ما يتداوى به ولا ما يرد عنه غوائل البرد القارس، الذى يفتك بالفقراء، ويحيل حياة الاصحاء منهم- دع عنك مرضاهم- جحيما لا يطاق.

فالمصريون يفرون بفضل محمد فريد، وبأفكاره لذاته، وبتحمله ما لم يتحمله سواه من زعماء مصر، من الآلام والاحزان. وأن صموده الباهر، فى وجه القوى العاتية المتألبة عليه، من مستعمرين وأولياء الامر المصريين، مثلا فريدا فى الثبات، والاستمساك بالعقيدة، التى استحالت حجرا منقدا فى يد المتشبث بها.

لكن الجانب الذى بقى مضمرا فى حياة محمد فريد، والذى آن الاوان، لأن ترفع عنه الاستار، وتسلط عليه الاضواء، ويتجه اليه الباحثون، ويقف عليه المواطنون، هو جانب الريادة الفكرية الاجتماعية فى كفاح محمد فريد.

فمحمد فريد ارتاد من مجاهل حياه بلاده الروحية، والفكرية ما سبق به جيله، وأكثر زملاء الاجيال التى جاءت بعده.

وليس محمد فريد. أول رجل من رجالات الامم يظلمه التاريخ العرفى، لان التاريخ العرفى غير المدون، لا يحب لابطاله الا الصور الواضحة، فان تداخل فى خلق الصورة عنصران، ضحى التاريخ العرفى بأحدهما وأبرز الثانى، فمحمود سامى البارودى، عند التاريخ هو الشاعر، وليس السياسى، وأن ذكر مع العرابيين فى ثورتهم، وابن خلدون هو صاحب المقدمة المشهورة، دون الكتاب الذى قدم له بهذه المقدمة، ودون عمله السياسى الصاخب، ونشاطه القلق، فى بلاد العربية، بلدا بعد بلدا، وقطرا بعد قطر.

وقد غمط التاريخ محمد فريد، جريا على هذا المنهج المحبب اليه، فذكر عشرات من المجددين، والرواد، فى عالم الفكر، والاجتماع، ولم يذكر محمد فريد، من بينهم، أو لم يذكره بالقدر الذى يستحقه.

والواقع، أن محمد فريد كان من السابقين فى دنيا الفكر، متحديا، لأوضاع المجتمع التقليدية مجددا فى أساليب الكتابة، وفى مناهج السياسة، وقد قادته ثورته الفكرية والاجتماعية الى السياسة، فبقى يمزجها، بنظراته الاجتماعية، حتى آخر يوم فى حياته، فقد كانت كلها، وحدة متكاملة تقوم على أساس من عقيدته التى ترفض الظلم والتمييز المجحف بجميع صوره، وتحارب الاستغلال، والاكراه فى كل أشكاله، وتدعو الى الحرية. حرية شعبه وأمته، وحرية الامم والشعوب كافة، وحرية الطبقات المضطهدة والمغلوبة على أمرها.

حياته الفكرية

بدأ حياته الفكرية يكتب مذكراته السياسية، وهو بعد شاب أقرب الى أن يكون صبيا، فقد شرع وحرر مذكراته ابتداء من سنة ١٨٩١، وكان وقتذاك فى الثالثة والعشرين من عمره، وراح يحدث نفسه ويناجيها فى هذه المذكرات، ويعلق على أحداث السياسة تعليقا يقطر جدا وصرامة، فقد علق مثلا على استقالة حسين فخرى باشا فى ديسمبر سنة ١٨٩١، فقال انها استقالة فى الظاهر، وطرد فى الواقع

وان هذا الباشا، يستحق أن يطرد لان الاستقالة المشرفة أتيحت له مرتين، حينما فرض عليه الانجليز وهو وزير الحقانية (العدل) المستشار (اسكوت) البريطانى، وهى مناسبة تستحق أن يترك منصبه من أجلها- ولكنه ضحى بالشرف- من أجل الوزارة، فحرم من الوزارة والشرف معا.

ثم أخذ يؤلف الكتب فكان باكورة كتبه بحثا فى تاريخ مصر فى عهد محمد على، وقد طبع هذا البحث فى سنة ١٨٩١- ثم أردفه بكتاب كبير تجاوزت صفحاته الثلاثمائة عن تاريخ الدولة العثمانية وقد نفدت الطبعة الأولى، فأعاد طبعه، بعد أن أضاف اليه، بابا كاملا عن الخلافة العربية، منذ عهد الرسول، ليكون كتابه شاملا للخلافتين العربية والعثمانية. والباب الخاص بالخلافة العربية يدهشك ايجازه وشموله للحقائق الرئيسية، أما الباب الخاص بالخلافة العثمانية، فقد درس فيه العلاقات الدولية، بين تركيا، والدول الاوروبية، وقد كانت هذه العلاقات، محور السياسة العالمية، ومثار التنافس والتحالف وانقسام المعسكرات بين الدول الكبرى، ويبدو من لغة الكتاب وأسلوبه، وجمعه للحقائق التاريخية والسياسية والتعليق عليها، ان الكاتب راسخ القدم، وان النظر فى أمور السياسة، هو هوايته المحببة، وصناعته المستقبلة، وكان أذ ذاك فى السابعة والعشرين، وهى فترة مبكرة لا يستسيغ الشباب فيها، طعم البحوث الدولية، ثم

أخرج فى سنة ١٩٠٢، كتابه عن تاريخ الرومان.

وقد كان تأليف الكتب باللغة العربية فى تلك الفترة، نشاطا استأثر به أو كاد السوريون واللبنانيون، ولم يسهم فيه من المصريين الا قلة، كان أغلب أفرادها، أن لم يكونوا جميعا من المصريين الذين أوفدتهم الحكومة للدراسة فى الخارج، فأثار احتكاكهم بالحياة الغربية، واطلاعهم على ثقافتها، وجدانهم وحفزهم على التأليف. فرفاعة الطهطاوى، على مبارك، وعبد الله فكرى، وأحمد شوقى كانوا جميعا مبعوثين رسميين للدولة.

على أن الذى يستحق أن نطيل الوقوف امامه، وان نطيل التأمل فيه، هو اللغة السهلة البسيطة الواضحة، التى تذهب الى الغرض فورا، والتى اصطنعها محمد فريد، منذ اليوم الاول الذى امسك فيه بقلم، وأجراه على ورق، **فلغته لغة العلم: التى تحررت من كل الزخارف والمحسنات البديعة: والتى خلصت من المقدمات الطويلة، والمنحنيات البلاغية، وكأنها لغة اليوم.**

خذ مثلا على ذلك، ما جاء فى مقدمة كتابه عن الدولة العثمانية قال:

«العالم أجيال متعاقبة، يخلف اللاحق فيها السابق، ويورثه معارفه، صحيحها، وفاسدها، وأخلاقه: حسنها وقبيحها.

وأعماله: تامها وناقصها، ويضيف الى ذلك معلوماته الخصوصية

وتجارب الذاتية، فيكون بذلك مدينته العصرية فاذا قام الخلف الشاب بالواجب عليه لعصره، واتخذ له من تجارب الشيخ مصباحا، استنارت له سبل السعى، وانفتح امامه الامل، فيرقى فى درجات المدينة بمقدار ما صرمه من العناء فى العمل- وما أحرزه من معارف السالفين».

الشيخ على يوسف:

ولكن محمد فريد الذى قلنا أن حياته الداخلية، التى صيغت فى مذكرات هى أكبر أثارة، لم يقنع بهذه الثورة الداخلية يناجى بها نفسه، والتى تسجل اضطر أمها وتعلن عنه، فى كتب لا يتداولها الا القليل، فخرج من دنياه الرصينة. التى يجرى فيها كل شىء على سنن من الوقار، وأحترام ما هو كائن، والتى تسودها التقاليد الموروثة، وأداب العلية التى لا تعرف انفعالا، وأن عرفت فلا تعبر عنه، خرج من هذه الدنيا، دفعة واحدة، وبلا مقدمات ، ولا استئذان هذه التقاليد الشامخة الثابتة، التى لا يجول بخاطرها قط، أن شيئا يمكن أن يخرج عن نظامه المألوف، وأسلوبه المعوف، فقد دفع القلق المقدس المبكر، محمد فريد بك وكان أذ ذاك قد أصبح وكيلا للنائب العام، الى محكمة عابدين الجزئية، لا ليجرى تحقيقا مع منهم، ولا ليترافع فى قضية، قياما بواجبه المرسوم له، بل ليشهد فى نوفمبر

سنة ١٨٩٦ احدى جلسات المحكمة. وكانت تنظر قضية مثل فيها أمام القضاء الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد، ورئيس تحريرها، وتوفيق افندى كيرلس، الموظف بمكتب تلغراف الازبكية، لا تهامهما بأنهما أفشيا أسرارا حربية، تتعلق بوضع الجيش المصرى، فى السودان بعد أن انتشر فيه وباء الكوليرا ولم يقنع محمد فريد، بالخروج على المألوف، بحضوره، هذه القضية السياسية، كواحد من جمهور قاعة المحكمة. بل انه لم يخف سروره، وابتهاجه، حينما قضت المحكمة ببراءة المتهمين كما لم يخف عطفه عليهما، فطاش صواب الدوائر الحكومية مصرية وبريطانية وطار أى مطار، فنقلت عقب الحكم، بلا تحرج أو حياء، القاضى على توفيق، الذى حكم بالبراءة من محكمة عابدين، التى كان يجلس فيها للقضاء منفردا الى دائرة ثلاثية بمحكمة القاهرة الابتدائية، ثم نقلت محمد فريد الى الصعيد، فحدث ما كاد يكون زلزالا فى عالم الحكومة ورسمياتها فقد استقال محمد فريد بك من وظيفة وكيل النائب العام. القى بالاستقالة فى وجه الحكومة، وكأنه يصفعها، ولو أردنا أن نعرف مدى ما فى هذه الاستقالة، من خروج على التقاليد المرعية، علينا أن نذكر أن العقاد، حينما استقال من وظيفة كتابية صغيرة فى مديرية الفيوم، قال إن استقالة كانت أمرا غير مسبوق، لان الناس كانوا متشبثين بأهداف الوظيفة الحكومية، الى حد أن عدد

المنتحرين فى تلك الايام، كان أكثر من عدد المستقيلين: ولم تكن وظيفة محمد فريد، مجرد وظيفة حكومية لان وظائف القضاء كانت وقفا على أولاد الباشوات والبكوات، فى الاغلب والاعم، وكانت خطوة نحو وظيفة ادارية كبيرة كوكالة لوزارة، أو ادارة لمديرية أو محافظة، تؤدى بدورها الى الوزارة، ولكن مهما أردنا أن نغالى فى تقدير استقالة محمد فريد من وظيفته القضائية ودلالتها الروحية فان اقدامه على الاشتغال بالمحاماة، واتخاذها عملا له، يكسب منه رزقه، كان اجراء عنيفا على مقدسات العائلات الكبيرة، التى كانت عائلة محمد فريد، واحدة من كبرياتها، فأولاد الباشوات والبكوات، كانوا لا يسعون الى تحصيل رزقهم قط. لان هذا الرزق، مكفول من ايراد أطيان تؤول اليهم عن الاباء والاجداد، أو عن وظائف كبيرة يرثونها كما يورث العقار.

كانت المحاماة فى تلك الايام لا تزال تدفع عن نفسها مظنة السوء اذ لم تكن قد تمتعت بعد بهذه الكوكبة اللامعة من رجال عرفوا أكثر ما عرفوا بالنزاهة والامانة والصدق، كما عرفوا بالكفاية والشجاعة والعلم. هذه الكوكبة التى ضمت أحمد لطفى، وعبد العزيز فهمى، وويصا واصف، وأضرابهم. ولذلك كان محمد فريد فى حاجة الى رصيد عظيم من الثقة بنفسه، وبالمحاماة معا، حينما قرر. أن يهجر وظيفته المرموقة، بمرتبها الثابت، الى مهنة، لا نجد أبلغ من

وصف كره المجتمع التقليدى لها. مما رواه لطفى السيد، فى مذكراته، من أنه رأى أحمد باشا فريد، والد محمد فريد يبكى وهو يندب حظه فى ولده الذى (فتح دكان أبوكاتو) فقد كان مكتب المحامى، عند فريد باشا، (دكانا)، وكان العمل فى هذا الدكان مصابا يستحق الذين ينزل بهم المواساة من الاهل والاصدقاء. واذا كان ترك وظيفة القضاء عملا عنيفا، والاشتغال بالمحاماة، عملا أكثر عنفا، فان محمد فريد، أقدم على عمل هادىء لا يلتفت اليه أحد، ولا يمكن أن يستخرج منه معنى ثوريا، وأراه أعظم دلالة على طابع محمد فريد الفكرى، وطموحه الروحى، واستشرافه للدور القيادى الذى أضطلع به، وادى ضرائبه على أحسن ما يكون الانسان. سخاء وبذلا.

رحلات وسياحات

فقد راح محمد فريد، يجوب الاقطار فى رحلات وسياحات، وقد كان كبراؤنا لا يعرفون اذا سافروا، الا كارلسباد وفيتس وأيفيان، اذا قصدوا الاستجمام، وباريس، أذا طلبوا الاستماع ولا شىء وراء ذلك. ولكن محمد فريد زار تونس والاندلس ومراكش وطرابلس الغرب، ووضع فى هذه الرحلات كلها رسائل وزعها بالمجان، يثير بها اهتمام مواطنيه بهذه الاقطار التى تكمل عالمنا، وتربطنا بها

الوشيجة بعد الوشيجة ثم سافر الى النرويج، وشهد الشمس فى منتصف الليل، ثم ذهب الى الجزائر ليحضر مؤتمر المستشرقين.

على أن الاهتمام الذى بذله جميع أقرانه، ومن تلاهم، هو شغفه بشئون آسيا وافريقيا، ولم يكن هذا الشغف فقط، قراءة واطلاعا، بل كانت كتابة وبحثا، وانا واجدون صدى هذا الشغف فى مقالاته التى كتبها فى المجلة نصف الشهرية التى أخرجها مع زميله محمود أبو النصر المحامى، وقد أسمياها رد الموسوعات..

فكان اسمها دليلا آخر على طموح فريد العلمى. وقد واظب فريد على تناول مسائل الاستعمار فى افريقيا واسيا، ففى عددى ١٣ و٢٧ من يناير سنة ١٨٩٩ حدث قراءه عن رحلة الرحالة (سفن هدين) فى أواسط آسيا، وفى عدد ٢٦ من ابريل حدثهم عن (انجلترا وفرنسا بأفريقيا) وفى ٨ من أغسطس عن (كيف ضاع استقلال جزائر هاواى) وفى العدد ٢١ من سبتمبر (انجلترا والترنسفال) ثم عن (روسيا فى آسيا) فى ١٦ من يناير سنة ١٩٠٠ ثم يعود الى (حرب الترنسفال) فى ٥ من فبراير ثم عن (الشركة الانجليزية الافريقية) فى عدد ٣٠ من مارس.

لم يكن الاطلاع على مجريات الامور العالمية، محببا لدى ساستنا وكان قصارى جهدهم أن يلموا بطرف يسير مما يجرى فى لندن وباريس من برقيات الوكالات البريطانية والفرنسية، رويتروها

فاس وكان المبرز منهم من يطالع كتابا بالانجليزية أو الفرنسية عن شأن من شئون المال أو السياسة، ولكن أن يعد أحدهم نظرة، الى خلف الستار الحديدى الحقيقى، المضروب على افريقيا واسيا وما يجرى فيهما لحساب الاستعمار ثم أن يتبين قيمة الوقوف على هذا النشاط الخفى الرهيب، في الدفاعه عن حقوقنا، فأمر لا يخطر على بال. ولذلك كان محمد فريد، فى هذه المتابعة اللفظية الذاكية المتسمة بالدأب والمثابرة، فذا، وكان بلا جدال، سياسيا من الطراز العالمى، الذى يصلح للقائد لامة تقع من العالم فى مركز دائرته وتضم اليها باليمين واليسار، خيوط السياسة فى اتجاهها من الشرق الى الغرب، ومن الشمال الى الجنوب.

آلت الزعامة الى محمد فريد بعد أن توفى مصطفى كامل الى رحمة الله فى العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨، فظهرت فى الحال، آيات نضجه، التى لاحت منذ صباه وشبابه المبكر، فبدأ أولا بتهيئة عناصر حركة شعبية واسعة النطاق، للمطالبة بالدستور وأعلن أنه لا يطلب الدستور من بريطانيا، ولا يوافق على ما يقوله الانجليز من أن الخديو لا يستطيع أن يعلن دستورا مصريا ألا بعد اذن من بريطانيا.

وقد تفرع على هذه السياسة الداخلية السليمة، أنه أعتبر أن مناط نجاح الحركة الوطنية، أن تكون حركة جميع طبقات الشعب وأن

تتسع للموظفين والطلبة، اتساعها للعمال والفلاحين. وقد اعانه على ابراز هذه المعالم للحركة التى قادها، أن الخديو عباس بعد طول ممالاته للحركة الوطنية، على أمل أن تكون مطيته، ما فقده من سلطان، على يد الاحتلال، ادرك أن هذه الحركة، بعد أن شبت عن الطوق، والتفت اليها وجدان الامة فى حادثة دنشواى أصبحت أكبر من أن يحتويها، أو يهادنها، فإما أن يجرى فى مسارها، وان يعتنق مبادئها، وان يقف معها وأما أن يحاربها ويحاول تضييق نطاقها ويقف مع أعدائها. فوقف مع الاحتلال، وابتدأت سياسة الوفاق التى أعلنها ونفذها فى السر الدوق جورست، بعد سياسة المشاكسة، التى طبقها اللورد كرومر وكانت أولى مواد هذه المحالفه الجديدة بين الخديو، ودار الاحتلال المعروف (بقصر الدوبارة) مطاردة محمد فريد، واضطهاده واضطهاد جرائد الحزب الوطنى، ومصادرتها.

فى السجن

وقد زج بمحمد فريد فعلا الى السجن، فى مناسبة، تليق به وتتفق مع صفاته وخصائصه العقلية والروحية فقد جمع الشاب على الغاياتى الطالب الازهرى، قصائد وطنية له فى ديوان انتهى امره بعد ذلك، وهو (ديوان وطنى)- وطلب الى محمد فريد أن يقدم له، فلبى فريد الدعوة، وكتب فى هذه المقدمة:

«الشعر من افعل المؤثرات فى ايقاظ الامم من سباتها، وبث روح الحياة فيها كما أنه من المشجعات على القتال وبث حب الاقدام والمخاطرة بالنفس فى الحروب»

«لقد كان من نتيجة استبداد حكومة الفرد سواء فى الغرب أو الشرق، اماتة الشعر الحماسى، وحمل الشعراء بالعطايا، والمنح على وضع قصائد المدح البارد، والاطراء الفارغ، فى الملوك، والامراء، والوزراء، وابتعادهم عن كل ما يربى فى النفوس، ويغرس فيها حب الحرية، والاستقلال. تنبهت لذلك الامم المغلوبة على أمرها، فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والاناشيد الحماسية. باللغة الفصحى، للطبقة المتعلمة وباللغة العامية لطبقات الزراع والصناع، وسواهم من العمال غير المتعلمين فكان ذلك من أكبر العوامل على بث روح الوطنية فى جميع الطبقات، ثم قال:

«ومما يزيد سرورى أن شعراء الارياف وضعوا عدة أناشيد وأغان، فى مسألة دنشواى، وما نشأ عنها، وفى المرحوم مصطفى كامل باشا . ومجهوداته الوطنية، وفى موضوع قناة السويس، ورفض الجمعية العمومية لمشروعها، واخذوا ينشدونها فى سمرهم وافراحهم على آلاتهم الموسيقية البسيطة. وهى حركة مباركة أن شاعت، فهى تدل على أن مجهودات الوطنيين قد أثمرت ووصل تأثيرها الى أعماق القلوب فى جميع طبقات الامة، وتبشر باقتراب

زمن الخلاص من من الاحتلال، ومن سلطة الفرد بأذن الله».

وواضح أن هذه السطور القليلة على بساطة عبارتها، تحوى برنامجا كاملا فى الثقافة الوطنية والجهاد الوطنى معا. فالادب الوطنى عند محمد فريد، هو الذى يوجه الى الشعب بكل طبقاته: من متعلمين وغير متعلمين، فى المدن والريف، بالفصحى وبالعامية، بالالات الرفيعة، وبالادوات البسيطة.

ثم هو يرى فى جيشان الريف، فى حفلات السمر بانفعالات تبعثها الاحداث الوطنية، وبالاغانى التى تدور حولها، وتستوحى منها معانيها بشيرا بخيرين: الخلاص من الاحتلال، والخلاص من حكم الفرد معا.

اما ان يكتب زعيم سياسى مقدمة لديوان شعر، فهو فى ذاته علامة من علامات اليقظة الروحية والفكرية.

ولقد اراد الاحتلال ان يتوج هذا العمل الفريد الممتاز، بما يستحقه من الاحتفال والعناية، فقد حبس محمد فريد من أجل هذه السطور، التى لا يستطيع أى قانون ظالم أن يرى فيها جرما.

ولكن الاحتلال، لا تقيده الاوضاع التى يرتضيها منطق العدالة التقليدية، فقد كان محقا للغاية، اذ راى فى هذه السطور، برنامج حركة ثقافية ووطنية، تريد ان توحد فى هدف واحد للقضاء على حكم الفرد، وحكم الاجنبى. وان توحد فى جيش واحد ابن المدينة وابن

القرية، والموظف والطالب، والفلاح والعامل وليس اخطر على الاحتلال من هذا التوحيد، سواء رضى القانون أو غضب.

لا مساومة

وقد كان حبس محمد فريد، مساهمة اجتماعية ووطنية منه، لا تقدر بمال. فقد كان دخول قاض سابق، وابن باشا، من كبار الاعيان موصول النسب بالخديو والعائلة المالكة، من أجل افكار ضمنها مقدمة لديوان شعر، تحولا فى حياة المصريين، جعل العمل السياسى ضريبة فادحة تؤدى، وليس ترفا ذهنيا، يستمتع به الذى يمارسه، بعيدا عن مشاق الميدان. وقد كان مسلك محمد فريد قبل السجن، وبعده، تشريفا للوطنية المصرية، ومثلا ينير طريق المجاهدين الذين سيأتون بعده. فقد كان محمد فريد، خارج البلاد عندما أعلنت النيابة قرار اتهامه، فعاد الى مصر توا بلا تلكؤ، ولما صدر الحكم بحبسه، خيل للخديو أن وجود محمد فريد فى السجن، هو أصلح مناسبة لمساومته فرفض فريد المساومة، واحتقرها، ولما خرج من السجن، أعلن أن السجن لم يزده الا صلابة، وقد ادرك الاحتلاليون، المكانة التى وصل اليها، بهذا السجن، فأطلقوا سراحه، فى الساعات الاولى من النهار وأكثر الناس نيام، ولكن المصريين تسامعوا بنبأ الافراج عنه فكانت مظاهرة.

و لسنا نود هنا أن نتعقب وقائع كفاح محمد فريد السياسى، وانما نود أن نبرز معالم ريادته الاجتماعية، وقد ظهرت بعض هذه المعالم، فى كتاب وضعه الحزب الوطنى كتقرير سنوى له، فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٨ وهى السنة التى آلت فيها الزعامة الى محمد فريد، وقد كان هذا الكتاب فى ٢٣٩ صفحة، وقد قسم الى قسمين رئيسيين. اولهما عنون «بالحركة العمومية الاهلية» والثانى «فى حياة مصر وشئونها»

اما القسم الاول فقد اشتمل على فصول منها فصل عن الحركة التعليمية ابتداء من الكتاتيب إلى الجامعة. وقد تضمن هذا الفصل بضفة خاصة، الرد على خطبة سعد زغلول وزير المعارف فى مارس سنة ١٩٠٧ فى الجمعية العمومية، وهى الخطبة التى رفض فيها سعد أن يكون التعليم فى المدارس المصرية باللغة العربية مصرا على أن يكون التعليم باللغة الإنجليزية.

والفصل الثالث عن الاحوال الزراعية والنقابات الزراعية، والعناية بصحة الفلاح وتأمين الفلاح على نفسه ومحصوله وماله.

والفصل الرابع عن الصناعة.

والخامس عن التجارة.

والسادس فى الأزمة المالية.

وكان من أهم قرارات المؤتمر السنوى برياسة محمد فريد،

انشاء مدارس الشعب لمكافحة الامية بنوعيها العلمى والسياسى. وهى المدارس التى كان يعلم فيها محمد فريد وأنصاره عبد العزيز جاويش وأحمد لطفى وعمر لطفى. العمال وأرباب الحرف الصغيرة.

امتلأت الحركة الوطنية بزاد جديد، فخرجت جموعها فى ٣٠ مارس وأول أبريل سنة ١٩٠٩، احتجاجا على صدور قانون المطبوعات الذى قيد حرية الصحافة، بعد أن أدرك الاحتلال والخديو أن الملاينة التى كانوا يصطنعونها فى عهد مصطفى كامل، لم تحقق ما كانوا يرجونه، من تبديد أبخرة الغضب الوطنى، فى مقالات وخطب حماسية وقد كان من عنف الاحتجاج أن احتاج هرفى باشا حكمدار العاصمة الانجليزى فى مكافحة المظاهرات، بخراطيم الماء أولا، ثم بقوات الجيش ثانيا.

وأحسب أنه من المفيد أن أنقل اليك فقرات من خطاب فريد فى الاجتماع السنوى للحزب:

يجب أن يكون قصدنا جميعا الوصول الى جعل التعليم الابتدائى الزاميا ومجانيا لكل مصرى ومصرية.

الديموقراطية الحقة. والمساواة الحقيقية، تقتضيان بان يكون التعليم الابتدائى مجانيا لجميع طبقات الامة، فقيرها وغنيها، حتى يشب التلاميذ على حب المساواة، ويعرفون منذ نعومة أظافرهم ألا تفاوت بين الناس الا بخدمة الوطن.

التعليم الابتدائى وحده غير كاف لحاجات الامة. فان الامم لا ترقى الا بالتعليم الثانوى والعالى.

الفلاح المصرى أتعس فلاح فى العالم، أتعس من الفلاح الروسى، الذى يضرب بشقائه المثل، ولا خلاص له من هذه الحالة الا بنشر التعليم الابتدائى وجعله اجباريا وبتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوق الفلاح أمام الحكومة وأمام الملاك الذين يزيدون عليه الايجارات بمناسبة وغير مناسبة، وأمام المرابين الذين يأخذون منه ما يبقى له بين جشع الملاك وظلم الحكومة.

نقابات العمال قوة هائلة تخضع لها الحكومة وتطأطىء رأسها أمامها.

لا سبيل لإيجاد هذه الحركة المباركة حتى يصبح الصانع والزارع فى مأمن من الفقر والتكفف عند الشيخوخة أو المرض أو لتحسين حالته المعاشية الا بالاكثار من المدارس الليلية فى المدن والقرى، لتعليمهم حقوقهم وواجباتهم وتفهيمهم أهمية النقابات وشركات التعاون.

عليكم يا أخوانى بنشر مبادىء التعليم بين هذه الطبقة التعسة: طبقة العمال، وتأسيس المكاتب الليلية ومساعدة النقابات بأموالكم وآرائكم.

على رجال الشبيبة الحرة التبرع بالقليل من وقتهم فى إلقاء

الدروس والمحاضرات النافعة فى هذه المدارس والجمعيات حتى يترقى العامل الفقير، ويدرك أن له حقا فى أن يعيش عيشة لا كعيشة البهائم.

فى القاهرة أحياء برمتها لا ينفذ اليها نور الشمس نهارا، ولا يوقد فيها مصباح ليلا، ولا تعرف للكنس والرش اسما.

وهاجر محمد فريد فى سنة ١٩١٢ الى تركيا لما اقتنع بأن بقاءه فى مصر، فى قبضة الاحتلال، سيحول بينه وبين أداء واجبه، فى مهاجمة الخديو والاحتلال البريطانى معا، فلجأ أول الامر الى استانبول عاصمة تركيا، ثم تركها لما ضاق به زعماء الحكومة العسكرية التى كانت تحكم تركيا أنذاك بزعامة أنور باشا، لأنه كان يطالبهم بأن يعلنوا بأن استقلال مصر، غايتهم من حملة عسكرية كانوا قد أعدوها لغزو مصر من ناحية القناة فى سنة ١٩١٥ أبان الحرب العالمية الاولى.

خرج من تركيا الى سويسرا، ثم انتهى به المطاف الى المانيا. وفى هذا العالم الفسيح والضيق معا، كافح فريد، بكل ما يمتلك، بقلمه ولسانه، بجلده الذى فاق كل مثل، واحتماله الذى لم يكن معينه لينضب. احتمال انفضاض الانصار طوعا أو كرها. فى هذا العالم الفسيح، لبعده عن سلطان الخديو والانجليز وحكومة الاتراك، والضيق لظروف الحرب العالمية، وتوجس الحكومات من كل حركة،

وخشيتهم من كل زعيم، بذل فريد أخر ما يملك، وكأنه قائد الفرقة الموسيقية، المريض الذى استمر يقودها، حتى نهاية العزف، حتى وصل الى أعلى قمم المعزوفة، وأشدها اثارة للخواطر، واهاجة للنفوس، وهو يشكو ألما حادا فى جانبه وفى صدره، وفى رأسه، وفى عينيه.

لم يترك فريد منبرا عالميا حتى ارتقاه، ولا هيئة داعية لنصرة الشعوب والامم الا وربط نفسه فيها، وتعاون معها، وكتب اليها.

وتلقى كتبها، خطب فى مؤتمر السلام باستوكلهم فى أغسطس سنة ١٩١٠، وفى ١٠ أغسطس أيضا، أدلى بحديث الى جريدة «الادمالبتيه» التى كان يصدرها الزعيم الاشتراكى «جان جوريس» وعاد فحضر مؤتمر السلام فى جنيف سنة ١٩١٢، كما حضر مؤتمر السلام فى لاهاى فى أغسطس سنة ١٩١٣ ثم مؤتمر الاجناس المضطهدة فى لندن فى فبراير سنة ١٩١٤ ثم مؤتمر الاجناس فى يونية ١٩١٦، والمؤتمر الدولى الاشتراكى فى ١٠ يونية ١٩١٧ وأرسل الى المؤتمر الدولى الاشتراكى المنعقد فى فبراير سنة ١٩١٩ فى برن، خطابا، كما أرسل خطابا آخر الى المؤتمر الاشتراكى الدولى فى أغسطس سنة ١٩١٩ باوسرن بسويسرا.

وكم ردد اسم مصر، فيما يكتب، وفيما يقول، وكم سمع منه الاشتراكيون والاحرار، والانسانيون الحديث عن بلاده. وعن خطر

الاحتلال البريطانى على السلام العالمى، وعلى مستقبل الانسانية.

واشتد عليه المرض. وأدرك فريد أنها النهاية، ولكنه كان يعتقد أن البذور التى القاها مصطفى قبله، والتى ألقاها هو بعده فى أرض مصر الخصبة الحية، وعلى ضفاف النيل العظيم الخالد لابد أن تثمر.. ولابد أن يرى هو بنفسه بواكيرها ان لم يجن شيئا من جناها

ما أساس هذا الاعتقاد. ما سر هذا اليقين. لا أحد يعلم. فلما جاءت أنباء ثورة سنة ١٩١٩، لاحت على شفتى هذا الغريب الغائب عن وطنه وأمته وأهله وزوجته. ابتسامة الأمل، كأنه يقول:

ألم أقل لكم؟ وأمسك بقلمه فى ١٤ من سبتمبر سنة ١٩١٩، ولعله لأخر مرة، ووجه الى أمته من بعيد، فى ذكرى الاحتلال البريطانى، أعظم تحية لثورتها.

ثم أرسل الى سعد زغلول برقية يقول فيها نحيى فيكم الوطن الغائب، ونرجو لكم كمال التوفيق والنجاح.

ولم يتلق فريد ردا على هذه البرقية. ولعله لم يكن ينتظر ردا.

فقد قامت الثورة، وهذا هو الرد الذى انتظره.

وفى ١٥ من نوفمبر سنة ١٩١٩، أسلم روحه الى بارئها. وكأنه بهذه الميتة المؤسية. وحيدا طريدا شريدا يؤكد للناس، أن خلاصة حياته هى شعاره.

«نحن نعرف كيف نصبر على المكاره، ولكنا لا نعرف النزول عن مطالبنا»

عبد العزيز جاويش

رأيت الشيخ عبد العزيز جاويش، لاول مرة فى مدينة بنى سويف، سنة ١٩٢٩، وكان مديرها، أى محافظها، قد دعاه - فيمن دعا - لالقاء محاضرة فى قاعة المحاضرات بدار بلديتها. وكنت قد سمعت أسم الشيخ منذ بدأت أدرك حقائق السياسة، وما يدور فى الوطن من أمور وأحداث. فطبعت له فى نفسى صورة رجل كل ما فيه عنيف: صوته، ومشيته، وأسلوبه فى الحديث، ومنهجه فى التفكير، وطريقته فى معالجة الامور، ومعاملة الناس. فلما قابلته فى بنى سويف يومذاك غير بعيد من دار البلدية، ومعه الشيخ على الجارم، راعنى أننى رأيت انسانا خافت الصوت، دائم الابتسام، مأنوس الطلعة، لطيف الاشارة، قليل الكلام، وقورا، تفيض آيات الوداعة من قسمات وجهه، ولفتات ذهنه، ونظرات عينه. ثم حانت ساعة المحاضرة، فأخذ مكانه فى الصدر، ثم شرع يتكلم، فاذا هو على هدوئه لم يفارقه، وكنت أحسب أنه سينطلق، وأن صوته سينحدر من صدره هادرا، وأن موقف الخطابة سيخرجه من الوداعة الى العنف، ومن الرقة الى الشدة..

والحق أن عبد العزيز جاويش رجل فكر، خلق ليعلم الناس، ويأخذ بيدهم، فى رفق الابوة، وحنو المرشدين، وليناقش الصعب من مشكلات العلم، فى أناة وصبر، وسيلته الحجة، وعدته الدراسة وهدفه الاقناع لا الغلبة، وكسب عقول الناس وتألف قلوبهم، لا اخافتهم أو تنفيرهم. ولكنه - نزل- كما سنرى الى حلبة السياسة، فلبس دروعها، وامتشق سيوفها، واصطنع أساليبها وخاض معها، وقد أختار أن يكون قائدا من قوادها، فى فترة من الزمن أشتد فيها أوار النزاع السياسى فى مصر، وتعددت معسكراته، وأصبحت معاركه معارك حياة أو موت. وكان الاحتلال البريطانى أكبر الاطراف، وأشدها قوة، وأعظمها مرانا على القتال، وأوفرها مالا، وأوسعها حيلة. وكانت «السراى» الملكية وصاحبها الخديو «عباس حلمى» طرفا ثانيا فى هذا الصراع وكان بدوره داهية من دهاة السياسة، زاده صبرا على القتال، واحتمالا لشدائده- شبابه، فقد كان دون العشرين حينما ولى سدة الملك، وطموحه فقد كان أضيق ما يكون صدرا بوجود الاحتلال البريطانى الذى يشاركه فى السلطان، وكان ماضى جده محمد على يخلب لبه، ويلقى فى روعه، أن قادر على أن يجدد مجده الذى اندثر، وسلطانه الذى باد..

أما الطرف الثالث فقد كان الشعب، الذى صدمته كارثة الاحتلال البريطانى، بعد فشل الثورة العرابية، بعد فترة قصيرة من بدايتها لم

تزد على عام. ولم يكن الاحتلال البريطانى مجرد غاز اقتحم على المصريين دراهم، بل كان نقلة هائلة من مجتمع شرقى، كل موارده الثقافية عربى اسلامى الى مجتمع غربى حديث اقتصر احتكاكه على بناء الشرق القريب، وأبناء الغرب القريب:

أهل الشام، وأهل المغرب. فقد انقضت فترة الاحتلال الفرنسى سريعا، ونسيت أحداثها، وطمست آثارها، ولم يعد يتذكرها أحد، وهى لم تخرج أحدا عن منهجه القديم، أو أسلوب معاشه المألوف، أو نطاق تفكيره الموروث.

كان الاحتلال البريطانى حكما أجنبيا، وصورة جديدة للادارة، ومجموعة غير مألوفة من الافكار، والمعتقدات، والوسائل، فى شئون الدنيا، وعالم العواطف والوجدان. لذلك انكمش الشعب وانطوى على نفسه فترة غير قليلة، بعد أن دخلت جيوش الاحتلال البريطانى القاهرة فى ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ بقيادة السير ولسلى، بعد أن ضرب الاميرال سيمور بمدافعه فى ١١ من يوليه من نفس السنة، مدينة الاسكندرية..

ولكن الشعب، بعد أن زالت الصدمة، بدأ يعيد تنظيم صفوفه ويسترد ثقته بنفسه، ويستأنف هجومه، وكأن القدر قد أعد عبد العزيز جاويش ليكتمل شبابه، فى الوقت الذى عاد فيه الشعب الى ميدان القتال، فقد ولد فى بنغازى بليبيا سنة ١٨٧٢ لتاجر من

تجار هذا القطر العربى الشقيق، هو الشيخ خليل حسن جاويش، ولما كان دور عبد العزيز فى مصر لا فى ليبيا، فقد زين هذا القدر لوالده، أن يهاجر اليها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، واختار له متجرا فى سوق المغاربة بالاسكندرية، ولم يلبث أن أصبح أكبر تجار الواردات الليبية الى مصر، ولما بلغ عبد العزيز سن الرابعة عشرة، بدأ يتلقى علومه فى معهد جامع الشيخ ابراهيم باشا، بالاسكندرية، وكان التعليم فيه على نسق ونظام التعليم فى الازهر، فلما أتم دراسته الاولية، سافر الى القاهرة، فى سنة ١٨٨٩ ليجاور فى الازهر، ولكنه سمع بأن مدرسة دار العلوم تجرى امتحانا لطلبة العلم، الراغبين فى اللحاق بها. ولما كانت دار العلوم التى انشأها على مبارك سنة ١٨٧١، تفسح لمن يتمون العلم فيها فرصا للعمل أوسع، وتهيىء لتلاميذتها أسلوبا للدرس والبحث، أدنى الى ذوق العصر، وأقل اضطرابا من منهج الدراسة فى الازهر، الذى بقى على حاله قرونا طويلة، يأبى أن يتطور، أو أن يلين، فقد عقد عبد العزيز العزم على دخول هذا الامتحان، ولم يثنه عن هذا العزم ما اتصل بسمعه من أنه امتحان شاق، تكاد تكون الغاية منه تعجيز الممتحنين لا الكشف عن قدراتهم، وقياس استعدادهم، وأنه يشمل الفقه والتفسير والحديث والتوحيد والمنطق، والنحو ،الصرف، والمعانى والبيان والانشاء والتاريخ. وكانت لجنة الامتحان تضم عشرة أعضاء،

وقد أستطاع أن ينجح فى هذا الامتحان العسير، سبعة عشر طالبا كان منهم عبد العزيز جاويش، وزميله حسين منصور، الذى أصبح أستاذا فى مدرسة القضاء الشرعى. وقد وصف الشاعر محمد عبد المطلب، الشيخ عبد العزيز فى هذه المرحلة فقال:

«لم يمض نحو شهر على هذا الفتى حتى أصبح روح أخوانه، وريحانهم وقرة كل عين، وأنس كل نفس، وقرارة كل فضيلة وخلق كريم. ويزيده عظمة فى أنفسهم أنه كان جامعا لكثير من الكفايات التى تعدها كالصفات المتقابلة، فبينما هو معدود بيننا من النابغين فى العلوم الكونية كالطبيعة والفلك أذ تراه من خيرة الاكفاء فى علوم الدين كلها.. ومع هذه الكفايات الكثيرة كان كوكب اخوانه فى الناحية الادبية، فهو شاعر الفرقة المطبوع، وكاتبها الضليع، ومن عادة المدرسة أن يكون لكل فرقة زعيم فى الادب له الصدارة عنها مواقف القول ومحافل البيان، فكان الاستاذ عبد العزيز زعيم أخوانه فى هذا الميدان».

وحسبك أن تقرأ هذه الشهادة، وأن تتأملها، حتى تعرف من أى طراز كان عبد العزيز جاويش، منذ مطالع شبابه، وأية مواهب انتظمتها شخصيته، وأية منازع اتجهت اليها مطامحه، ومزاياه وصفاته هذه تفتح أمامه سبلا متعارضة، فهو أما أن يكون من أهل الفكر الذين ينأون عن مواطن الصراع، ويلتمسون الهدوء، والدعة،

ليطيلوا التأمل، وليخرجوا للناس ثمار أفكار نضجت بعد روية وتثبت، وأما أن يكون من رجال الحياة العامة، بكل صخبها، واحتدام الخصومات فيها، وتوالى الوقائع فى ميدانها والتعرض لأذى الناس وعسف الحكام، ومعاناة الهبوط بعد الصعود، والادبار بعد الاقبال، والسجن والمنفى بعد الصدارة والنفوذ..

وقد مر عبد العزيز جاويش بالدورين معا، وأوفى فى كل منهما على الغاية..

بدأ بدور المربى والمفكر، اذ لم يكد يتخرج فى دار العلوم فى سنة ١٨٩٧ حتى عين مدرسا للغة العربية بمدرسة الزراعة، ولكن عمله بها لم يطل، أذ وقع اختيار وزارة المعارف عليه ليكون مبعوثها الى جامعة «برورود» بلندن، حيث درس فيها الآداب والتربية، وبعد أربع سنوات عاد ليعين فى سنة ١٩٠١ مفتشا للكتاتيب فى الوزارة، وقد أصدر فى هذه الفترة كتابين أولهما «غنية المؤدبين»، وثانيهما «مرشد المترجم»، وقد دل صدور هذين الكتابين عنه، عقب عودته من لندن، وقبل أن يطول عهده بالتعليم والتدريس، على مدى امتلاء نفسه بالرغبة فى أن يحدث تغييرا فى وطنه، وعلى نفاد صبره من عجز وسائل التربية فى مدارس مصر، ولا شك فى أن تجربته فى الازهر، وفى دار العلوم، أكدت له أن التعليم لو ترك على حاله، فى بلادنا، لكان سيرها نحو الامام، زحفها على البطون، على طريق ملتوية،

تمتلىء بالفجوات والعقبات.

وقد شاء له الحظ أن تتنوع صلاته بمعاهد التعليم فى بلاده، فبعد أن درس فى مسجد الشيخ ابراهيم باشا بالاسكندرية لحق بالازهر- كما مر بنا- ثم انتقل الى دار العلوم، ثم درس فى مدرسة الزراعة، ثم أصبح مفتشا للكتاتيب.. ثم عين مدرسا فى مدرسة الناصرية للمعلمين، بدلا من الاستاذ حسن توفيق الذى اختير ليدرس اللغة العربية فى جامعة كمبردج، ولما كانت جامعة كمبردج وجامعة أوكسفورد لا تكفان عن المنافسة، كان لابد للثانية منهما أن تختار استاذا للغة العربية فيها، كما فعلت أولادهما، ووقع اختيارها على الشيخ عبد العزيز، بتوصية من المستشرق مرجليوث، الذى لا بد أن يكون قد عرف الشيخ حينما كان يطلب العلم فى جامعة «برورود».

وقد كانت هذه الحلقة فى حياة الشيخ عبد العزيز، مع سابقاتها دالة على أن القدر يأبى الا أن يعده للدور الذى لعبه فيما بعد:

فبعد دراسته الاسلامية الواسعة أبى القدر الا أن يتيح له فرصة واسعة كذلك، يتصل بفضلها بالثقافة الغربية، ويأخذ عن مناهلها مباشرة، ثم ليرى بنفسه رأى العين صور الحياة السياسية فى بريطانيا، موطن الديموقراطية البرلمانية بكل خصائصها المميزة لها، من ملك يملك ولا يحكم، وأحزاب تلعب دورا خطيرا وحاسما فى الحياة السياسية، وصحافة يحسب لها كل الناس ألف حساب

وندوات للمناقشة الحرة، ودور غنية تطبع الكتب الحديثة، وتحقق وتنشر الكتب القديمة، وهذا كله فى أطار غريب من المحافظة على الماضى، والتشبث بجوهره مع تطور مستمر، ومسايرة لا تنى، لما تأتى به الايام من أفكار جديدة، ووسائل للحياة لا عهد للناس بها.

وقد أفاد الشيخ عبد العزيز جاويش من فترتى اقامته ببريطانيا تلميذا ومدرسا، الشىء الكثير. وكان أهم ما أفاده إتقانه اللغة الانجليزية، حتى بات كواحد من أبنائها، ثم عرف كيف ينظر الاوروبيون الى الاسلام، وماذا يأخذون عليه، أو يرمونه به، ثم ماذا تكون عيوب المجتمع المصرى أو الإسلامى التى تعوق تقدمه، وتحول بينه وبين التطور، الذى يفضى الى استجماع القوة، وتحصيل أسباب التحرر.

وقد بقيت ثمار هذه التجربة زادا للشيخ عبد العزيز جاويش حتى آخر حياته، فقد رسمت له منهج عمله، ووضعت أمامه سبيل كفاحه. فأصبح داعيا الى حرية وطنه، والى تطور التفكير الدينى عند مواطنيه، واصلاح أساليب التعليم فى بلاده وارساء قواعد جديدة للحياة السياسية بها، تقوم أول ما تقوم على العناية بالعمال، والطبقات الفقيرة، وبانشاء النقابات لطوائفها، وإشاعة الثقافة السياسية بين أبنائها.

وكتاب «الاسلام دين الفطرة والحرية»، فى الواقع، صدى مباشر

لهذا المنهج الذى اختطه لنفسه، والتزم به، لم يحد عنه قط، حتى آخر نسمة تتردد فى صدره.

ولكن ما كادت سنة ١٩٠٥ توافى، حتى بدأ القدر يعد الشيخ عبد العزيز للمرحلة الثانية من حياته، وهى المرحلة الاخيرة، فى الوقت نفسه، فقد بقى يؤدى فيها دورا واحدا لا يتغير، حتى فارق دنيانا..

فى هذه السنة انعقد مؤتمر المستشرقين بالجزائر، وحضره محمد فريد، زميل مصطفى كامل فى الكفاح وخليفته فى الحزب الوطنى، وكان الشيخ عبد العزيز، من بين العلماء الذين حضروا هذا المؤتمر، فبدت مواهبه الذهنية، والبيانية، باهرة، فأثارت تقدير محمد فريد، الذى أعجبه بصفة خاصة من الشيخ عبد العزيز الرد الذى أفحم به المستشرق الالمانى «فولرس» الذى كان قد قدم بحثا للمؤتمر، ذهب فيه الى أن القرآن هو أول كتاب فى العربية كتب باللغة العامية. فلما انتهى المؤتمر، تحدث محمد فريد، الى مصطفى كامل طويلا، عن الشيخ عبد العزيز، ومواهبه الفائقه، وشخصيته الفريدة، فأحبه مصطفى على البعد، ولما زار بريطانيا، فى احدى رحلاته السياسية، أوعز إلى محمد فريد أن يسأل الشيخ عبد العزيز: هل لديه ما يمنعه من أستقبال مصطفى كامل. فرد الشيخ على الفور، بأن هذه الزيارة تسره وتشرفه، وكان مرد تحفظ مصطفى كامل فى

طلب الزيارة، الى أن الشيخ عبد العزيز كان فى ذلك الحين موظفا بالحكومة، معارا لجامعة أكسفورد.

وبقى الشيخ عبد العزيز موظفا حكوميا، حتى كانت سنة ١٩٠٨، التى شهدت فى ١٠ فبراير منها، وفاة مصطفى كامل، فقدم استقالته من الوظيفة، وتولى رياسة تحرير اللواء، خلفا للزعيم الشاب، ونشر له اللواء فى ٣ من مايو سنة ١٩٠٨، مقاله السياسى الاول الذى استفتح به كفاحه الطويل الشاق، وقد يحسن أن ننقل من هذا المقال بعض فقراته، التى كانت أشبه شىء بقرع الطبول الذى يسبق المعركة، قال:

«بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن، وخور العزيمة، ومطيتها الدهان والتلبيس، فى أسواقها تشترى نفسيات النفوس، بزيوف الفلوس، وتباع الذمم والسرائر، بالابتسام وهز الرؤس، وبيمينك اللهم أستقبل فاتحة حياتى الجديدة، حياة الصراحة فى القول، حياة الجهر بالرأى، وحياة الارشاد العام، حياة الاستماتة فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة. أستقبل هذه الحياة، بعد أن قضيت فى سابقتها ثمانى حجج، بلغت فيها ذلك المنصب الذى كنت فيه ما بين محسود عليه، ومرجو فيه، أستقبل هذه الحياة المحفوظة بالمخاطر منبريا فى ميدانها، فاما الى الصدر، وأما الى القبر».

وبهذا بدأت صفحة، بل بدأ فصل من فصول التاريخ الوطنى، فى

مصر، كان الشيخ عبد العزيز بطل أبطاله، وقد كان فصلا حافلا بالحركة والقتال، اختفى منه ما كان قد ران على الشعور فى مصر من التحفظ والاحتياط، اتقاء لشر الاحتلال، أو طمعا فى خيراته، وبدت فيه مصر على حقيقتها، شجاعة مؤمنة صابرة، تبدأ خطاها وئيدة، ثم يتسع مداها وتتلاحق، فى سرعة واندفاع، كما يبدأ صوتها خافتا، ثم يأخذ فى العلو والارتفاع، والامتداد والشدة، والوضوح والحدة، ويتوالى خروج الابطال من أبنائها مستشهدين، وكتابا ثائرين، وشعراء مبدعين ومجددين، لا فى ميدان القول وحده، بل فى أساليب النضال واثارة الجموع، وتأليبها.

وقد لا يتسع مجال القول هنا لسرد المواقع التى خاضها الشيخ عبد العزيز الواحدة بعد الاخرى، فى تفصيل واسهاب، ولكن لابد من أن نشير اليها فى ايجاز، لانها فى الواقع، ليست أحداث حياته هو، بل وقائع حياة مصر فى تلك الحقبة، التى كان فيها الشيخ أحد خمسة أو ستة، اتخذ التاريخ منهم محاور يدور حولها، وهؤلاء هم: مصطفى كامل، ومحمد فريد، وعباس الثانى، واللورد كرومر. وخامسهم بلا جدال الشيخ عبد العزيز جاويش، وقد يليهم الشيخان على يوسف، ومحمد عبده، ثم جورست، وكتشنر.

ما كاد الشيخ عبد العزيز، يمسك قلمه، كرئيس تحرير لجريدة اللواء، حتى خاض أولى معاركه، وكانت معركة مدوية، اذ كتب فى

الخامس من مايو، عام ١٩٠٨ عن المذبحة التى أقامها الانجليز فى السودان فى منطقة الكاملين، التى خرج فيها زعيمها «عبد القادر إمام» يدعى النبوة، والتف حوله لفيف من أنصاره، فأوفدت الحكومة السودانية عددا من الجنود، برياسة ضابط بريطانى بمساعدة ضابط مصرى، فأبادهم عبد القادر إمام، جميعا، فأرسلت الحكومة حملة أكبر برياسة ضابط أعظم رتبة، وبعد معركة بين الطرفين، جرح فيها ضابطان بريطانيان، وقتل فيها ضابطان مصريان وجنود كثيرون، تمكنت حكومة السودان من القاء القبض على زعيم الفتنة، وقدمته وقدمت أنصاره لمحاكمة عسكرية مستعجلة، وعلم الشيخ جاويش، أن المحكمة حكمت على سبعين من أنصار الزعيم بالموت شنقا، فثارت ثائرته، وتذكر حادثة دنشواى، ورأى حادثة الكاملين أقبح، وأمعن فى الظلم، وأردف مقاله فى ٥ مايو بأخر فى ١١ من نفس الشهر، ثم عززهما بمقال ثالث فى السادس والعشرين، وفى السادس من يونية، قدم المستر «أشلى» أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى سؤالا عما إذا كانت الحكومة المصرية، تنوى محاكمة الشيخ عبد العزيز، أم لا، وكان هذا السؤال نذيرا بأنه سيقدم للمحاكمة، وفعلا أجرت معه النيابة تحقيقا، قدمته على أثره الى المحاكمة فى الثامن من يوليه، فبرأته محكمة عابدين من تهمة نشره خبرا كاذبا، وقضت بتغريمه عشرين جنيها لاهانته لوزارة الحربية، واستأنفت النيابة كما

استأنف هو الحكم، فقضت محكمة الاستئناف فى ٣٠ من أغسطس ببراءته.

لم تكن هذه القضية، مجرد جنحة، تنظرها محكمة الجنح، وانما كانت حدثا سياسيا، اضطربت له أعصاب الحكومة، وثارت عواطف الشعب، الذى كان يتابع المحاكمة، فى حماسة، وينتظر خروج الشيخ، كل يوم عقب كل جلسة، ليهتف له، وليحاول جر عربته بدلا من جيادها، حتى اذا صدر حكم البراءة، اعتبر انتصارا للشعب على الحكومة، وكالعادة ألهم الاتهام والمحاكمة والحكم الشعراء، فنظموا فيها جميعا: حافظ ابراهيم ومحمد إمام العبد، وأحمد نسيم قصائد عصماء حفظها الناس ورددوها، وقد كانت كلها قصائد تتقد بالغضب، اليك مثلا هذه الابيات من قصيدة نسيم:

أجمعوا كيدهم فــرد اليهـم ... طاعنا فى النحور والاكباد
زعموا أنهم أصابوا ولكن ... ربك الله كان بالمرصاد
فكفى الخزى فوقهم من دثار ... لبسوه كأنهم فى حداد

وجاءت المعركة الثالثة، فى أعقاب المعركة الثانية، بلا إمهال، وكانت المعركة هذه المرة فى ميدان منحه الشيخ أعمق عواطفه، وأكثرها تدفقا، ذلك هو ميدان التعليم، الذى بدأ فيه حياته، وكان سبب هذه المعركة، أن سعد زغلول، اختير من بين مستشارى محكمة الاستئناف ليكون وزيرا للمعارف، فى ٢٨ من أكتوبر سنة

١٩٠٦، فرحب بهذا الاختيار مصطفى كامل وأثنى عليه، واعتبره بشيرا ببداية عهد يوكل فيه الى المصريين ذوى الاستقلال مناصب الوزارة، ولكن سعد زغلول، بدأ حياته فى الوزارة بالاستقالة من عضوية اللجنة المشكلة لانشاء جامعة مصرية أهلية، واعتذر بأن أعماله لا تسمح له بالمشاركة فى أعمالها، وكان الانجليز يعارضون هذا المشروع، ولا يرضون عنه، ثم أتبع سعد هذه الاستقالة بخطبة ألقاها فى الجمعية العمومية فى ٣ من مارس سنة ١٩٠٧- وكانت الجمعية العمومية مجلسا نيابيا ضعيف الاختصاصات، لا يملك مراقبة الحكومة ولا تعديل الميزانية- فجاء فى خطبة سعد زغلول ما نصه (١):

«إن مركز الامة من الامم الاخرى، واختلاطها بالاجانب، واشتباك المصالح الاجنبية بالمصالح الوطنية، كل ذلك أوجب أن يكون تعليم العلوم باللغة الاجنبية، لكى يتقوى الطلاب فيها كما ينبغى، ويمكنهم بها أن يستفيدوا من المدنية الاوروبية، ويفيدوا بلادهم بها، ويقووا على الدخول مع الاجانب فى معترك هذه الحياة، حياة العلم والعمل».

أصيب الوطنيون بخيبة أمل لهذا التصريح، وابتدأ اللواء يغير موقفه من سعد، وأخذ مصطفى كامل يهاجمه، فلما كانت سنة

---

(١) عدد اللواء فى ٢٣ مارس سنة ١٩٠٧.

١٩٠٨، نشر المعتمد البريطانى، تقريره السنوى، فأورد فيه فقرة استنكر فيها حملة الصحف الوطنية، على مستر دنلوب، المستشار البريطانى لوزارة المعارف، وقال ان للوزارة وزيرا مستقلا، هو سعد زغلول، فلا يجوز اتهام المستشار بأنه المسئول عن سياسة وزارة المعارف، فكان نشر هذا التقرير سنة ١٩٠٨، تجديدا لحملة اللواء على سعد، وقد تولى الحملة هذه المرة الشيخ عبد العزيز جاويش بسلسة من المقالات عنوانها «ظلموك يا سعد»، وقد ذاع صيت هذه الحملة، وتداولت الألسن عباراتها، وكان الشيخ عبد العزيز، يعنى أن الانجليز، اتخذوا من اسم سعد، ومن شخصه ستارا يسدلونه على أعمالهم فى الوزارة، وهذا هو موطن ظلمهم له ولماضيه.

***

ولم تنته هذه المعركة، الا لتفسح مكانا لمعركة أبعد مدى، وأطول عمرا. تلك هى المعركة التى دارت بين «اللواء» ورئيس تحريره الشيخ عبد العزيز جاويش، وبين «الجريدة» ورئيس تحريرها أحمد لطفى السيد.

وقد بدأت هذه الحملة بتصريح أدلى به أحمد شوقى أمير الشعراء فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٨، الى جريدة المؤيد، قال فيه إن الخديو لا يستطيع أن يمنح البلاد دستورا بغير ارادة الانجليز، وقد جاء فى أعقاب هذا التصريح، تصريح أدلى به فى أكتوبر من

السنة نفسها الدون جورست المعتمد البريطانى، قال فيه أن بريطانيا لن تمنح مصر دستورا، وانه لا يغير من موقف بريطانيا، أن يكون السلطان عبد الحميد، سلطان تركيا قد منح بلاده دستوراً، إذ لا تأثير لما يجرى فى تركيا على مجريات الامور فى مصر فانهال الشيخ عبد العزيز على كل من شوقى والدون جورست، والمقطم تقريعا، وتنديدا.

وحدث أن خطب اللورد كرومر فى بريطانيا، بعد عزله من منصبه كمعتمد لبريطانيا فى مصر، بعد حادثة دنشواى، فقال فى خطبته مثل ما قاله خلفه فى مصر «جورست» من أن حصول الاتراك على دستور لا يؤدى الى منح المصريين الدستور، ورمى المصريين بأنهم لا يهتمون بانتخاب أعضاء مجلس شورى القوانين، ولا يميلون الى تعليم أولادهم. فشن عليه الشيخ جاويش حملة ضارية، ولما لم يعجب الشيخ مسلك بعض أعضاء مجلس شورى القوانين، الذين يميلون الى الحكومة كل الميل، ويكرهون أن يوجه اليها نقد، أصلاهم من قلمه نارا حامية، فنهضت جريدة «الجريدة» للدفاع عنهم، فاشتبك الشيخ معها، وكان المجلس قد قرر حرمان مندوب جريدة اللواء من حضور جلساته، فأخذ أحمد لطفى السيد يدافع عن مسلك المجلس، ويتهم الشيخ بالتهور والعنف، وأنه بعنفه يحاول أن يقطع علاقات لطفى السيد، بأصدقائه فى الحزب الوطنى، فالتفت اليه الشيخ،

وذكره بمواقفه من صاحب اللواء حال حياته، ومن تطاوله عليه، ثم ذكره بعجزه عن الدفاع عن المتهمين الابرياء في قضية دنشواى.

أتسع نطاق معركة الدستور، وكان الشيخ عبد العزيز لا يدع أمرا يتصل بهذه المعركة، الا واتخذه ذريعة لتعميقها، من ذلك أن شاه ايران صرح لوكالة رويتر فى ٢٤ من نوفمبر سنة ١٩٠٨ بأن المتعلمين من أفراد شعبه لا يرغبون فى مجلس نيابى أو دستور، وأن علماء الدين قد أفتوا بأن المجلس مخالف للشرع، فتفجر غضب الشيخ عبد العزيز فى مقال ننقل اليك منه:

«لم يبلغ الشاه بغيته بما أنزل بأمته من الكوارث الساحقة الماحقة، فثاب الى تلك التكأة التى طالما توكأ عليها ضعاف الايمان من أمراء المسلمين، فجمع حوله من الدين عمائم كالنمائم، ولحى كذيول الخيل، وجببا كأنها أوراق الكرنب، وسبحا لا تقل حباتها عن بيض الحمام، وألسنا لا تريح كاتب السيئات».

***

كان اللورد كرومر يرخى حبل النقد لصحف الحزب الوطنى، لا ايمانا منه بحرية الرأى، بل استهانة بما يستطيعه «اللواء»، وما تستطيعه خطب مصطفى كامل، ولكن لم يكن كرومر ليتحمل وطاة صحف الحزب الوطنى، لو قدر له البقاء فى منصبه، بعد حادثة دنشواى فى ١٣ من يونية سنة ١٩٠٦، فقد ظهر للانجليز وللأجانب

جميعا أن الحركة الوطنية المصرية ليست حركة سطحية، تقتصر على تأييد الطبقة المتعلمة من طلاب المدارس العليا، وبعض طوائف المتعلمين من طلاب المدارس العليا، وبعض طوائف المتعلمين من المحامين ومتوسطى الموظفين فى الحكومة وصغارهم، بل أنها تعبير عن شعور شامل غامر، وان قوتها تزداد مع الايام، وقد كانت دعوى الاحتلال أن الفلاحين معه، وأنهم سعداء بما أسداه اليهم من خير، وما وفره لهم من حرية بعد عهد السخرة والكرباج، فلما وقعت حادثة دنشواى، وثبت أن الذين تشاحنوا مع الضباط الانجليز هم من صميم صغار الفلاحين سقطت حجة الاحتلال، ولم يعد يدرى كيف يلفق لنفسه دفاعا، لذلك لم يكن هناك بد من أن يعدل قانون المطبوعات، فعدل، وأصدرت الحكومة قانونا جديدا فى ٢٨ من مارس سنة ١٩٠٩، وأصبح من حق الحكومة بمقتضى هذا القانون، أن توقف الصحف اداريا، كما أحيلت قضايا الصحف الى محكمة الجنايات بدلا من محكمة الجنح، بعد أن برأ القضاء الابتدائى الشيخ جاويش فى قضية الكاملين كما مر بنا. لذلك كان على الشيخ أن يخوض معركة حرية الصحافة، وقانون المطبوعات، فخاضها كالعادة، صريحا، حادا، عنيفا، على أعداء رأيه، وخصوم فكرته، وقد دأ الحملة بمقال نشره فى ٢٣ من مارس فى تلك السنة، ودع فيه لمه وقال:

«أيها القلم لو كنت سيفا لأغمدتك فى صدر من يحاربونك، أو سهما لأنفذتك الى أعماق قلوبهم، ولو كنت جوادا لوجدت لك فى ميادين النزال مجالا للكر والفر.

«أيها القلم استلانوا عريكتك، واستهانوا بقوتك، وأمنوا جانبك، فمدوا اليك يدا مجرمة ما كان أولاها أن تقطع..»

ولم يمر اصدار قانون المطبوعات فى يسر وسهولة، فان حركة المقاومه، أحدث شكلا جديدا إذ اعتنقت الجماهير مبادىء الحزب الوطنى، فخرجت جموعها فى أول ابريل سنة ١٩٠٩، الى الشوارع، وعقدت اجتماعا ضخما فى حديقة الجزيرة، وتدفقت الى القاهرة بعد مرورها على كوبرى قصر النيل، واضطرت الحكومة أن تحشد قوات البوليس بقيادة حكمدار العاصمة البريطانى «هارفى باشا»، ثم لما لم تفلح هذه القوات فى تشتيت المتظاهرين وتفريق صفوفهم استعانت بخراطيم مياه المطافىء، ثم بفرقة من فرسان الجيش

واستمرت حملة اللواء، يغذيها قلم الشيخ جاويش، وأقلام كتاب اللواء وشعرائه الشبان، ومنهم الشيخ على الغاياتى الذى نشر له اللواء فى نفس العدد الذى نشر فيه الشيخ عبد العزيز مقاله، قصيدة جاء فيها:

أعباس هذا آخر العهد بيننا — فلا تخش منا بعد ذاك عتابا

ونيأس من آمالنا فيك كلما — قضيت علينا أن نكون غضابا

وأرضيت أعداء البلاد وأهلها   وأصليتنـا بعد الوفاق عذابا

ألا أمطـر الله الوزارة نقمـة   ولا بلغت ممـا تروم مـرامـا

***

ولم يكن ممكنا أن تسكت الحكومة ولا الانجليز على بقاء الشيخ جاويش خارج السجن حرا، فانتهزت فرصة نشره فى ٢٨ من يونية مقالا فى ذكرى دنشواى، اعتبرت أن فيه قذفا فى حق كل من بطرس (باشا) عضو هذه المحكمة، والذى يقال أنه هو الذى كتب الحكم، ومحمد يوسف المحامى، فدعته للتحقيق معه فى ٧ من يوليه، ثم قدمته للمحاكمة فى ١٧ من يولية، وفى ٢٥ من أغسطس صدر الحكم بحبسه ثلاثة أشهر، فأثار الحكم سخط الشعب، وتألفت المظاهرات احتجاجا عليه، واحتاطت الحكومة لمنع هذه المظاهرات، ولما زج بالشيخ الى السجن امتلأت صحف الحزب الوطنى بمقالات غاية فى العنف ضد الحكومة، وتجاوز العطف على الشيخ، مصر، فكتب اللبنانى ايليا أبو ماضى قصيدة كان مطلعها:

لئن حجبوك عن مقل البرايا   فما حجبوا هواك عن القلوبِ

أما الشاعر أحمد نسيم فقد نظم قصيدة كان مطلعها:

يا نازل السجن محفوفا باكبار   هون عليك فما فى السجن من عار

وخرج محمد فريد وجدى، وهو الكاتب الهادىء، الذى لا يعرف عنه عنف العبارة ولا شدتها، فقد كتب مقالا فى جريدة «الدستور»

بدأها ببيت شعر:

وما على التبر عـــار في النـــار حين يقلبُ

أما الشيخ الغاياتى فعلى عادته ذهب الى أقصى الغاية فقال فى قصيدته:

أنت البرىء ومن يخـــا لك مجرما هو مجرمُ

وتأيد الحكم من محكمة الاستئناف، ورفض الطعن الذى قدم لمحكمة النقض.

وفى الوقت الذى كان فيه لشيخ عبد العزيز جاويش فى السجن، اكتتب أنصار الحزب الوطنى، والمعجبون بالشيخ بمبلغ كبير اشتروا به وساما من حرير، ثمين، مزين بثلاث قطع ذهبية مرصعة بالاحجار الكريمة، فلما أطلق سراحه، أقيم له احتفال ضخم فى فندق شبرد، وسلم له الوسام، ولما خرج من الاحتفال، فى مساء يوم ٢٢ من فبراير سنة ١٩٠٨، اجتمعت الألوف خارج الفندق، لتحييه وترفعه فوق الاعناق.

وفاض معين الشعر فى هذه المناسبة، فنظم الشعراء قصائد جميلة، فى تحية للشيخ، وتمجيد وطنيته وشجاعته وكان من الشعراء، شاعر شاب هو الشيخ طه حسين الذى قال:

الآن حق لك الثناء فلتحى وليحى الثناء

وكان الاحتلال يؤمل فى أن السجن سيوهن من عزم الشيخ

جاويش، ويسلمه الى أسلوب أكثر اعتدالا، ولكن السجن، وحفاوة الشعب، لم يزده الا ضراوة فى القتال، فكان لابد من حبسه مرة أخرى، وقد اتيحت للحكومة هذه الفرصة، حين صدر ديوان «وطنيتى» للشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد، الذى ما كاد يتصفحها، حتى كتب فى ٤ من يوليه سنة ١٩١٠ مقالا يستعدى فيه النيابة على صاحب الديوان. ولم يكن هذا الديوان سوى مجموعة من القصائد نشرها صاحبها تباعا فى جريدة اللواء، ولم تجد النيابة وقتذاك فيها ما يستحق المؤاخذة، ولكنها فرحت أشد الفرح بصدور الديوان، وبمقدمتى الديوان اللتين كتب الشيخ جاويش احداهما، وكتب محمد فريد رئيس الحزب الوطنى الثانية، وقد رأت النيابة أن المقدمتين تنطويان على تحبيذ قصائد الديوان، التى تنطوى بدورها على تحسين جرائم القتل وغيرها، فحقق مع الشيخ جاويش، فى سرعة، وقدم للمحكمة، لتقضى عليه بالسجن ثلاثة أشهر مع النفاذ فى ٧ من أغسطس سنة ١٩١٠ وخرج منه ٤ من نوفمبر ليستأنف جهاده، أشد عزما، وأقسى على خصوم فكرته وعقيدته.

وكان محمد فريد خارج البلاد عند محاكمة الشيخ جاويش، فلما عاد أقيمت عليه الدعوى فى ٢٣ من يناير سنة ١٩١١، وحكم عليه بالسجن ستة أشهر مع النفاذ. أما صاحب الديوان نفسه، الشيخ على الغاياتى، فقد حكم عليه غيابيا بالحبس سنة، وكان قد هاجر قبل

المحاكمة الى تركيا.

ومقدمتا محمد فريد والشيخ عبد العزيز لديوان وطنيتى، لم تكونا مقالين سياسيتين، فحسب، بل كانتا قبل كل شيء دعوة لشعر جديد، يهجر المعانى الموروثة، والاساليب المألوفة، ويجدد فى أساليبه ومعانيه، ويتصل بالحياة، ويحتفل بما يجرى فى دنيا الناس.

قال الشيخ عبد العزيز:

«قد يتوهم بعض المتشاعرين، أن الشعر هو ذلك الجمل الموزونة، ذات الروى الملتزم، فنراهم أجرأ ما يكونون فى تقصيد القصائد والانتساب الى دعوى الشعر معتمدين على جهل كثيرين بأسرار الشعر ومزايا.. اذا شئت أن تعرف جيد الشعر فدع عنك تفاعيل البحور، والتزام الحروف ومحسنات الالفاظ، واعتبر بما يتركه فى نفسك من الاثر».

***

كان أمام الشيخ جاويش بعد ذلك أن يخوض معركة كبرى، من أكبر معارك بلاده، تلك معركة القناة، فقد تفاوضت الحكومة المصرية خلال سنة ١٩٠٩ سرا مع شركة قناة السويس لمد امتياز شركة القناة أربعين عاما بعد نهاية هذا الامتياز فى سنة ١٩٦٨، مقابل أربعة ملايين من الجنيهات تدفع لمصر أقساطا، وقد استطاع محمد فريد رئيس الحزب الوطنى أن يحصل على نسخة كاملة لهذا

المشروع فى اكتوبر سنة ١٩٠٩، فاجتمعت فى الحال، اللجنة الادارية للحزب الوطنى وطالبت بعرض هذا المشروع على الجمعية العمومية، التى كانت وقتذاك المجلس النيابى للبلاد، دون أن يكون لها من المجالس النيابية حتى مجرد الاسم.

وكتب الشيخ جاويش أول مقال فى هذا الشأن فى ٢٦ من يونية سنة ١٩١٩ وكأنما كان يقرأ المستقبل فى كتاب مفتوح قال:

«يقرأ المصرى كل يوم ما تنشره شركة القناة من التقارير الدالة على ما يجنى ملاكها من الغلات العظيمة، والربح الزائد فى كل عام، فيفكر فى نفسه: متى...؟ متى يعود ملك هذه القناة إلى مصر؟ متى ينقضى أمد امتياز هذه الشركة القابضة على مفتاح هذا الكنز، حتى تتمكن مصر من استرداد فيئها المسلوب، مع تراثها المنهوب؟ متى يضاف الى مالية مصر من غلة هذه القناة عدة ملايين من الجنيهات فى كل عام، فتستطيع بذلك أن تقضى من ديونها، وتصلح من شئونها، وتعد لنفسها اذا شاءت مالا يزيدها أمام أعدائها قوة وبأسا؟».

واضطرت الحكومة تحت ضغط مقالات محمد فريد والشيخ جاويش وباقى الصحف المصرية حتى ما كان منها معتدلا، ومواليا للاحتلال، أن تعرض المشروع على الجمعية العمومية، وأن تحترم قرار هذه الجمعية، ولو أن قرارات هذه الجمعية لا يلزم الحكومة أصلا.

فأخذ الشيخ جاويش، يبصر أعضاء الجمعية العمومية بواجبهم ويدعوهم الى الصمود والثبات، وألا يلقوا بالا الى تهديدات الحكومة ووعودها، وذكرهم بأن بريطانيا كانت تبرر احتلالها لمصر، بأن وراء قناة السويس أملاكا، وأن لها فى شركة القناة أسهما، فاذا امتد أجل شركة القناة أربعين عاما بعد مدته المنصوص عليها فى عقد الشركة كان معنى ذلك أننا نطيل أمد الاحتلال بأيدينا.

وكانت رياسة الجمعية معقودة للامير حسين كامل شقيق الخديو عباس، فلما خرج عن واجب الحيدة الذى يجب على رئيس كل هيئة احترامه لم يتردد الشيخ جاويش فى تعنيفه قائلا:

«كنا نرى فلتات- يظهر فيها الامير بمظهر الهازىء بواجب الحيدة، الكاره لحرية الاراء، الميال لتعضيد الحكومة، وأخذت تلك الفلتات تزداد فى الايام الاخيرة، حتى بدأ الامير يظهر شيئا فشيئا بمظهره الحقيقى، وجاءت مسألة قناة السويس، فاذا بالامير قد خرق أكبر صفة يتحلى بها رؤساء المجالس النيابية، وهى التزام الحيدة.»

وتدور المعركة فى الجمعية العمومية، ويقف سعد زغلول وزير المعارف آنذاك، ليدافع عن امتياز القناة، باذلا كل جهد، منتفعا بكل حجة، معتمدا على قدرته الخطابية، ولكن الجمعية العمومية، رفضت المشروع، بما يشبه الاجماع اذ لم يشذ عن الاجماع سوى عضو واحد هو مرقص سميكة.

***

لكن فى حياة الشيخ عبد العزيز جاويش جانبا، يقتضى الانصاف من كل مؤرخ أن يجليه، وأن يبدد ما انعقد حوله من سحب الشبهات الطالمة، ذلك هو الجانب الذى رمى فيه الشيخ بتهمة التعصب ضد الاقباط، واثارة النزاع الطائفى فى مصر.

وقد يجفل بعض المؤرخين من تناول هذا الجانب، بدعوى أن ذلك مما لا يتفق مع وحدة البلاد المتينة، الثابتة، التى جعلت الحديث فى هذا الشأن اثارة لماض كريه أو تحريكا لذكريات مؤلمة ولكن مع تسليمنا بأن هذا الحافز جليل، وسام، الا أن تاريخ الشيخ، أمانة فى ذمم وأعناق المؤرخين، ولا يسوغ أن يضحى به لاعتبار فقد قيمته الان.

ونحب أن نبادر بأن نشأة الشيخ، ومصادر ثقافته، ومعارفه، تحول بينه وبين أن يكون هذا الكاتب الاحمق الذى تعبث به آفات التعصب الضيق، فقد كان منذ بداية حياته العلميه والعملية من علماء التجديد والاجتهاد، الذين يريدون للاسلام أن يخرج من الحيز المحدود الذى وضعه فيه جمود بعض علمائه، وانطوائهم على أنفسهم، وبعدهم عن موارد الثقافة عند المسلمين، وتطورات السياسة والاجتماع فى الدنيا.

وكان الشيخ جاويش فريدا بين جميع الازهريين، لانه فى أيامه كاد يكون الازهرى الوحيد الذى تعلم فى الازهر ودار العلوم، ثم فى

بريطانيا، ثم كاد يكون وحده الذى وقع عليه اختيار جامعة بريطانية عريقة، كجامعة اكسفورد، ولو لاحظ عليه الرؤساء البريطانيون فى مصر، أو الاساتذة البريطانيون فى لندن، هذه الافة لما رشحوه للوظيفة التى رشح لها، وهى وظيفة تجعله صاحب أثر على التلاميذ البريطانين الذين يتلقون عنه العلم، وهم بعد شبان

ويجب أن نستحضر لاذهاننا صورة الحالة السياسية، فى الفترة التى اندلعت فيها نيران فتن الخلاف بين الاخوة المسلمين والاقباط ففى سنة ١٩١٠ وما قبلها، كان الاحتلال البريطانى يمر فى أحرج أدواره. فقد كان ممثلو الاحتلال وكبار موظفيه، يخدعون أنفسهم بأن المصريين استناموا للاحتلال وارتضوه، وأن خطب مصطفى كامل ومقالاته ومحاولاته، لم تحرك ساكنا، وان أثارت الاعجاب به، إلا أنه كان اعجابا سلبيا يقنع بالتحية والهتاف، وقراءة اللواء، ولا يخطو بعد ذلك خطوة. فلما اتضح للانجليز أن الحركة أكبر من ذلك، وأقوى، عز عليهم أن يمنوا بالهزيمة، فأصبح ممكنا أن يثار نزاع مصطنع بين الاقباط والمسلمين، يشكو فيه الاقباط من ضآلة حظهم فى المناصب الحكومية، والحال أن الامر كله كان فى ذلك الحين للانجليز، وقد كانوا الآمرين الناهين، ولم يكن الوزراء المصريون، سوى وجهات تخفى وراءها الرؤساء البريطانين، وتحميهم من النقد.

واذا رجعنا الى أصل القضية التى انتهت بمقال الشيخ جاويش

الذى نشــر فى اللواء فى ١٧ من يونيــة سنة ١٩٠٨ تحت عنوان «الاسـلام غـريب فـى بلاده، رأيناها تبدأ بمـقـالات ينشـرها جندى ابراهيم صاحب جريدة الوطن فى جريدته يشكو فيها من مظالم تقع بالاقباط، ويقترح تأليف وفد لمقابلة الحكومة لعرض هذه المظالم، ثم ينشىء أخنوخ فانوس جـمعيـة أو هيئة اسـمها «مـجتمع الاصلاح القبطى» لنفس الغاية، فيتصدى الاستاذ ويصا واصف المحامى وعضو اللجنة الادارية للحزب الوطنى، لهذه المحاولات ويكتب مقالا فى اللواء يوجه فى الحديث لأخنوخ فانوس يقول له فيه: «شكلت جمعية سميت بمجتمع الاصلاح القبطى، فانتخبت لها رئيس الطائفة الانجلية (البروتستانتية) رئيسا ثم دعوتنا الى الانتظام فى سلكها، فسألناها: ما غرضك والى أى شىء ترمين؟.. ان كنت حزبا سياسيا فنحن لك أعداء ألداء».

وهاج غضب جريدة الوطن على الاستاذ ويصا واصف، واسمته يهوذا الاسخريوطى، واشتدت حملتها على اللواء وعلى الشيخ جاويش وعلى الحزب الوطنى واللواء صامت.لا يجيب على هذه الحملة لانه يعلم أنها لا تمثل الاقباط فى قليل أو كثير، وأن الانجليز يسرهم أن تقع الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، ويصرح بذلك فعلا فى مقال نشر باللواء فى يوم ٤ من يونية سنة ١٩٠٨ قال فيه:

«ها هو ذا السير جورست يريد أن يقدم لقومه قبل سفره الى

لوندره ما يثبت لها مهارته، حتى اذا حط بها الرحل، وخلا إلى أولى الامر فيها قال: هأنذا قد نلت مالم ينله سلفى، ونجحت فيما فشل فيه استاذى، اذ حاول اللورد «كرومر» مرارا التفريق بين عنصرى الامة، وطعن المسلمين بالاقباط والاقباط بالمسلمين، فلم ينجح، ولم يفلح، ولكنى تمكنت باشارة صغيرة منى الى فريق من صغار الموظفين أن أوجد الفكرة التى كان اللورد يجد وراءها ولا يصل»

ولعل هذه العبارة وحدها كافية فى الكشف عن الاسلوب الذى تناول به الشيخ جاويش منذ بداية الفتنة هذا الموضوع، وهو اسلوب الوطنى الذى يحرص غاية الحرص على وحدة الامة، وهو فى الوقت نفسه أسلوب السياسى الذى يعرف أن الأنجليز بذلوا كل ما فى وسعهم للتفريق بين المسلمين والاقباط ولم ينجحوا عندما كانت الحركة الوطنية فى بدايتها، فلا يجوز لزعماء هذه الحركة، حينما يشتد ساعدها، أن يعينوا أعداءها على ضربها فى أقوى مقاتلها.

ولكن الاحتلال والاحتلاليين استمروا فى النفخ فى نار هذه الفتنة حتى تجاوز كاتب اسمه فؤاد كامل حد البحث فى العلاقة بين المسلمين والأقباط الى الطعن فى الاسلام ذاته، اذ قال فى مقال نشر فى ١٥ من يونية سنة ١٩٠٨: أن الاعتزاز بالقوة والاستهتار بالضعيف، هما الحجران اللذان بنى عليهما ما يسمونه مجد الاسلام، والحق أنه كان من الصعب على رجل كالشيخ جاويش طبع

على العنف فى مناقشة خصومه المسلمين قبل غيرهم من البريطانيين والاجانب أن يصطنع أسلوبا أخر فى الرد على اعتداء كهذا واقع على دينه لا سيما أنه يعلم أن كاتب المقال مدفوع من أعداء المصريين الاقباط والمسلمين على السواء، فاشتد عليه فى القول كعادته، وبنفس الاسلوب الذى خاض به كل معاركه السياسية من أجل الدستور وقناة السويس وحرية الصحافة، وهو لم ينل من الاقباط ولم يمسهم بسوء بل قال: «ولو كنتم عشتم ربع هذا الزمن الذى عشتموه مع المسلمين مع الانجليز لألحقوكم بالجنس الاحمر فى أمريكا، أو الصنف الاسمر فى أستراليا». ثم أن فى هذا المقال نفسه الذى ذهبت شهرته فى الآفاق وردد الناس عباراته كدليل تعصب جاوز كل حد، ما ينضح ببراءة الشيخ مما نسب اليه فقد قال: «عشنا فى هذه البلاد دهرا طويلا فكنا كما شاء لنا الاسلام اخوانا فى الوطنية شركاء فى المرافق الحيوية نتجاور ونتزاور، ونتشاور ونتسامر، ونتعاشر ونتناصر».

على أن هذه الفتنة لم تلبث أن انطفأت حينما أدرك الذين من خلفها أنه لا طائل من تحتها، وأن مجموع الشعب فى قرى الريف والصعيد من أقباط ومسلمين، بقوا على سابق عهدهم من تواصل وتواد كأن هذه الحملة لم تقع. وقد توقفت اللواء منذ أواخر شهر يوليه عن مواصلة الكتابة فى هذا الموضوع ولم ترد على جريدتى الوطن ومصر.

حتى وافى رأس السنة الهجرية، واحتفل الحزب الوطنى بها، فحضر الاحتفال الاستاذ مرقص حنا المحامى وعضو مجلس ادارة الحزب وخطب فيه قائلا: «جئت لاقول لكم كلمة صغيرة فى مبناها كبيرة فى معناها، وهى مهما قيل ويقال عن مقاطعتنا وتدابرنا فنحن إخوان فى الوطن».

ورد عليه الشيخ جاويش بقوله: «رب ضارة نافعة، فلقد كان نتيجة تباعد الطرفين زمنا أن محص الله المخلصين منهما للجمع بينهما، فالطرفان لم يخلقا إلا ليتحدا».

وقامت ثورة سنة ١٩١٩ والشيخ جاويش خارج الوطن، وتوفى المرحوم محمد فريد فى ألمانيا فى ١٥ من نوفمبر فى تلك السنة فوقف على قبره الشيخ جاويش يؤبنه وقد مس بطبيعة الحال ما جرى فى فتنة سنة ١٩٠٨ وانطلق على سجيته يقول:

«أبصر فريد كيف اتحدت كلمة الشعب وتعاقدت خناصره، اذ ألف الله بين قلوب أحزابه وطوائفه، وأصبحوا بنعمة الله أخوانا، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله منها، أبصر فريد كيف نافس فى سبيل الوطن المفدى أطفال الامة الشيوخ، ونساؤها الرجال، ومسيحيوها المسلمين، وكيف تعانق الهلال والصليب، والتقى القرآن والانجيل، وتعانق الشيخ والقسيس».

ولعل أجمل ما يمكن أن نختم به القول فى هذا الجانب من حياة الشيخ جاويش أن نذكر أن الشيخ رشح نفسه لانتخابات أول برلمان ينعقد فى مصر وذلك فى سنة ١٩٢٣ فهاجمه منافسه والحزب الذى كان يؤيده، افتدرى من جاء لنصرة الشيخ جاويش للاشادة به وبوطنيته؟ جندى (بك) ابراهيم صاحب جريدة الوطن، الذى كان أول من حمل عليه سنة ١٩٠٨ ورماه بتهمة التعصب، وكراهية الاقباط، وأيده بمقال طويل حار نشره فى جريدة الوطن فى عددها الصادر فى ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٢٣

***

يحسب الكثيرون أن الحملات التى قام بها اللواء لعهد مصطفى كامل ثم لعهد عبد العزيز جاويش كانت صراخا عنيفا فى الهواء، وكانت حماسة كلامية مسرفة، وأنها لم تجد شيئا، وأن اسلوب التعقل والتبصر الذى التزمه خصوم اللواء، والذى مال بهم الى صداقة الاحتلال وممثليه، وخطب ودهم، وتبادل الرأى معهم، والاخذ بنصيحتهم، هو الطريق السوى السليم.

وما ذهب اليه هؤلاء هو الخطأ بعينه، فإن هذه الحملات- وإن اتسمت بالعنف والشدة أحيانا- كانت كالقوارع التى تخرج الناس من جمودهم، وتبث الشجاعة والحرارة فى قلوبهم وأعصابهم، وكانت وحدها السبب فى كل ما شمل البلاد من الرغبة فى الاصلاح

وكراهية النظام القديم، والميل الى تجديد التفكير الدينى والاجتماعى فلولا هذه الصيحات المدوية التى انشق عنها قلب مصطفى كامل وعبد العزيز جاويش لما قامت حركة اصلاح دينى، ولا ترجم كتاب عن اللغات الاوربية، ولا نبتت فكرة انشاء جمعية خيرية، أو بناء مستشفى، أو اقامة جامعة أو ارسال بعثة للخارج.

وقد صورت جريدة فرنسية فى سنة ١٩٠٩ اثر اللواء، فقالت قد شرح أحد السائحين الذين جالوا فى الديار المصرية ذلك فقال:

إن الذى يزور الآن قرى مصر يرى فيها أمرا مستحدثا ما كان ليخطر على بال أحد، يرى حلقات من الفلاحين ملتفين حول رجل يتصدر مصطبة فينصتون اليه، وهذا الرجل فى العادة من القصاصين الذين يتلون القصص القديمة، ولكنه يقرأ الان اللواء ويفهم الفلاحون ما يتلوه عليهم، وبذلك يبذر فى قلوب اولئك الذين لم يألفوا منذ أجيال غير الخضوع، بذرة جديدة قد تنمو وتثمر فى مستقبل الايام».

على أن نشاط الحزب الوطنى والشيخ جاويش، لم يذهب كله جهدا سياسيا، بل إنه التفت فى عناية واهتمام بالغين الى النواحى الاقتصادية والاجتماعية، وبذر فيها بذورا كانت هى أصول ما شاهدته البلاد بعد ذلك من تطورات وحركات تحرر اجتماعى وتحرر اقتصادى على أوضاعه القديمة الضيقة الكريهة.

بدأ الحزب الوطنى فى إنشاء «مدارس الشعب» لتوفير الثقافة السياسية والاجتماعية للعمال فى المدن، وقام الشيخ جاويش بتدريس مادة الدين، وقد بدأت هذه المدارس بواحدة فى بولاق حى العمال، وأردفت بثلاث مدارس أخرى فى أقسام الخليفة وشبرا والعباسية، ودعا الحزب الوطنى الى انشاء نقابات للعمال، وكانت باكورة هذه النقابات نقابة عمال المصانع اليدوية، فقام الشيخ جاويش بوضع قانونها، وأسندت اليه رياستها. أما التعليم فقد كان ميدان الشيخ المفضل، وكان هو جواده المجلى، ولذلك لا يتولانا شىء من الدهشة حينما نطالع البرنامج الذى أعده الشيخ لاصلاح التعليم فى بلادنا، فتقع أبصارنا على أفكار متقدمة بمعيار الزمان الذى وضع فيه هذا البرنامج ومعيار زماننا نحن، فقد اقترح مثلا أنشاء «رياض الاطفال» وأسماها «بساتين الاطفال» يتلقن فيها الطفل منذ بلوغه الثالثة الاغانى والاناشيد والرسم والألعاب حتى يبلغ السابعة، ثم حينما نراه شديد العناية بالتعليم الفنى الزراعى والصناعى والتجارى، وحينما يصر على أن التعليم العملى فى المدارس كلها قرين التربية النظرية، وحينما كان يقترح تعليم التلاميذ مبادىء الحساب التجارى ومسك الدفاتر التجارية.

ان تفكير الشيخ عبد العزيز الاجتماعى كان ينضح فى كل ما يكتب وقد مر بك أنه حمل على شاه ايران لما أنكر على أمته حقها

فى الحكم الدستورى وقد قال فى حملته هذه:

«كبر عليه أن ينصف من لا ينفق الا من مالهم ولا يخدم الا برجالهم، اذ لولا ذلك العرق المتصبب من حياة الزراع، والجهد الذى يبلغ نفوس كثير من الصناع، لما وجد مضغة يلوكها ولا غرفة من ماء يشربها».

***

بقى أن نتحدث عن جانب من أهم جوانب كفاح الشيخ جاويش وجهاده، ذلك هو جانب المصلح والمجدد الدينى.

ولا شبهة عندى فى أن الشيخ جاويش- لولا أن الجهاد الوطنى قد استأثر به لكان إمام هذه الامة، ولتوالت آثاره، على نسق هذا الكتاب العظيم «الاسلام دين الفطرة والحرية، الذى نقدم له بهذه الصفحات.

فالشيخ عبد العزيز جاويش، رجل توافرت له كل خصائص ووسائط المصلح الدينى، فقد درس الاسلام فى أكبر وأقدم جامعة إسلامية ونعنى بها الازهر. وقد أتم دراسته منقطعا لها، متفرغا للاحاطه بها، وكانت مواهبة الذهنية والبيانية تعينه على أن يبرز فى تلك الدراسة على الرغم من الصعوبات التى تحشد فى طريق طالبى المعرفة الاسلامية، لما أصاب المناهج من تحجر، والمراجع من غموض واسهاب تضيق له النفوس، وتفرع تضل معه العقول.

ثم درس فى أوروبا فعرف الاساليب الحديثة فى البحث والتنقيب، وترتيب الافكار واستخلاص النتائج من المقدمات استخلاصا سائغا. وعرف كيف ينظر الاوروبيون الى الدين الاسلامى، والشبهات التى تعلق باذهانهم ونفوسهم عن أحكامه ومبادئه، وقارن بين أسلوب الاوروبى فى حياته، وتحصيل العلم، وتدبير المال، واستجماع أسباب القوة وادارة البلاد، واختيار الحكام، ومحاسبة الملوك والوزراء، وتنوير الرأى العام، واحترام أحكامه، ونشر التعليم وتيسير سبل الثقافة، فأدرك مدى تخلف المجتمع المصرى والعربى والاسلامى، ونظر الى الدين فلم يجد فيه ما يحول دون التقدم والتنافس فى ميادين البحث العلمى النظرى والتطبيقى، واقامة صروح الاقتصاد والصناعة والتجارة، وتحرير المرأة والعامل، فخاض معاركه السياسية مملوء النفس بهذا الايمان، عظيم الامل فى أن يوفر لبلاده أسلحة تعينها على طرد الغاصب الاجنبى، وطرد الخزعبلات والاكاذيب العقلية والسموم النفسية معه.

لذلك كان الشيخ عبد العزيز جاويش مصلحا نموذجيا حارب الانجليز وخاصمهم، وحارب الرجعية سواء كانت رجعية رسمية ممثلة فى الخديو والوزراء، أو كانت ممثلة فى الاوهام الشائعة التى يتبناها ويحرص عليها أقوام ينسبون الى العلم الدينى زورا وبهتانا، وما هم الا متجرون بالدين، ومتخذون من أحكام القرآن بضاعة مزجاة. فقد

أعفى الله الشيخ جاويش من هذا الخطأ الذى تردى فيه أخرون دعوا الى الاصلاح الدينى، وأحسنوا الكتابة فيه، والدعوة اليه، ولكنهم استندوا فى دعوتهم الى تأييد من المعتمد البريطانى ممثل الاحتلال الاجنبى وهزئوا بالدعوة السياسية، وبالحركة الوطنية والقائمين على أمرها، ومع أنهم لو انضموا اليها لأعانوها، ومهدوا الطريق فى الوقت نفسه للاصلاح الدينى الذى يدعون اليه ويحرصون عليه.

ولقد استطاع الشيخ عبد العزيز جاويش أن بجد من وقته وجهده ما يستطيع أن يخصصه للاصلاح الدينى، فوقف على ذلك الجانب المهم من مشاغله مجلة الهداية الاسبوعية التى أصدرها فى فبراير سنة ١٩١٠، وقد استمر يصدرها حتى سنة ١٩١٢. ثم صدرت متقطعة فى تركيا حتى سنة ١٩١٤، وقد قال في افتتاحية العدد الاول منها، فى بيان أغراضها: «إن من يلقى على أحوالنا نظرة تستبطنها .. يرى آفات فاشية، وخرافات عاتية، وفوضى ممتدة العرق لم يخل لنا منها شأن» ووعد بمواجهة هذا كله. ثم قال انه سيفرغ «من أقسامها قسما لانعاش لغة العرب من عثارها بما يأتى به من التحقيقات اللغوية والاشارات الادبية». وقد صدر العدد الاول بباب تفسير القرآن، وقال عن منهجه فى التفسير أن سيسير فيه «مجتنبا كل ما يريك الاذهان، ويبعد آيات الله عن الافهام، وقلما تكلمت فيما له علاقة بقواعد اللغة ومسائلها، فان كتاب الله أظهر من أن يتوقف

فهمه على المماحكات الصناعية والتصاريف الاعرابية».

وما نشره من التفسير يثبت أنه قصد منه افهام الناس أحكام القرآن فى يسر وبما يتفق مع ما أنتهت اليه حقائق العلم بغير محاولة لادعاء أن القرآن جاء ليقرر هذه الحقائق العلمية، فنفى فعلا وهو يشرح كلمة سماء فى الآية «وأنزلنا من السماء ماء» ما ذهب اليه بعض المفسرين من أنها موج مكنون، وأن السماء الثانية من صخرة، والثالثة من حديد والرابعة من نحاس، وقال: «الحقيقة أن القرآن لم يأت بشيء من ذلك ففى القرآن ما يدل على أن السموات بناء مؤلف من أجزاء مادية على نحو ما ترى فى أرضنا، ومنها ما يدل على أنها مجرد طرائق ومدارات تسير فيها الكواكب السيارة».

ولقد أورد هذا الحكم الفقهي الحاسم ليكون دستور المفسرين جميعا قال:

«ولقد نص الاصوليون أنه اذا وقع التعارض بين ظاهر القرآن أو الحديث وبين القضايا العقلية التى يصيبها الانسان عن طريق البرهان القاطع أو المشاهدات الواقعة تحت سائر الحواس على شريطها- اذ وقع بينهما هذا التعارض، وجب تأويل تلك العبارات والاحكام بما يطابق هذه القضايا العقلية».

ولقد اشتد الشيخ فى مهاجمة الذين يسمون أنفسهم مصلحين دينيين ويحتمون بالانجليز، وهو موقف سليم بغير شبهة، ذلك لأن

الانجليز لا يسكتون على اصلاح دينى حقيقى فضلا عن أن يساعدوا القائمين به، لان الاصلاح الدينى لا يقضى الا لاخراجهم وزلزلة قواعد سلطانهم، واثارة الناس عليهم وتنبيههم الى حقوقهم، ومن يغفل عن ذلك فهو أما جاهل وأما متجاهل.

ولما احتلت ايطاليا طرابلس (ليبيا) أعان المجاهدين الليبيين لا بالقلم وحده ولكن بجمع المال، وارسال البعثات الطبية، والعتاد والاسلحة مع القوافل المسافرة بين مصر وليبيا، وقد أعانه فى هذه الجهود أخواه أحمد وعبد اللطيف، وقد جمعت هذه الجهود بين الشيخ وبين أنور باشا زعيم زعماء جمعية الاتحاد والترقى التركية التى آلت اليها الحكومة قبيل الحرب العالمية الاولى.

***

اشتد اضطهاد الحكومة للشيخ عبد العزيز جاويش، ولكل زعماء الحزب الوطنى، وأتخذوا من قانون المطبوعات سلاحا يقتلون به الحركة الوطنية، فمنعوا صدور جرائد الحزب الواحدة بعد الاخرى، وكانت نذر الحرب العالمية الاولى تلوح فى الافق، ثم كانت الحرب الايطالية الطرابلسية التى وثقت من العلاقة بين جاويش وأنور الزعيم التركى الكبير، فبدا للشيخ جاويش أن الهجرة الى تركيا واجبة، لينجو بحريته، وليواصل جهاده بعيدا عن يد بريطانيا وبطشها، وهاجر فعلا فى أوائل سنة ١٩١٢

ما كاد يستقر حتى أخرج مجلة الهلال العثمانى فى مارس من تلك السنة، وهى وإن كانت تصدر فى استانبول الا أنها كانت ترسل الى مصر، وغيرها من البلاد العربية فيتلقفها الناس، وتنقل عنها صحف الحزب الوطنى مقالات الشيخ جاويش، فكأنه بين مواطنيه، وعلى أرض وطنه، لم يهاجر.

ولذلك اتخذت السلطات البريطانية ذريعة من منشورات ضبطت مع طالب مصرى يدعى أحمد مختار فى ٢٣ من أغسطس سنة ١٩١٢، كان قادما من تركيا للاسكندريا، وقيل إن فى هذه المنشورات حضا على الثورة واللجوء الى العنف، كما قيل إن الطالب حينما حقق معه ادعى أنه تسلم هذه المنشورات من الشيخ جاويش، فطلبت السلطات المصرية (البريطانية) من تركيا تسليم الشيخ. ولما كانت الحكومة القائمة فى تركيا موالية للانجليز فقد وافقت على تسليمه فجىء به الى مصر، وبقى مسجونا من ٩ سبتمبر سنة ١٩١٢ حتى ١٧ من أكتوبر من السنة ذاتها، فعاد الى تركيا وأخذ يصدر الى جانب الهلال العثمانى، مجلته القديمة «الهداية»، ولم يكن عمله فى تركيا مقصورا على اصدار الصحف بل كانت دار الهلال العثمانى منتدى سياسيا يؤمه كبار الساسة من الاتراك ومن غيرهم فى العالم الاسلامى كله. ولما نفضت تركيا يدها من ليبيا وتركت المجاهدين الليبيين يلاقون مصيرهم وحدهم أمام الغزو الايطالى،

أبى أن يوقف جهاده، وندد بموقف الحكومة التركية وهو مجرد لاجىء سياسى لارضها، وتعاون مع أنور باشا فى مساعدة الليبيين، ومدهم بالمال والسلاح

ولم يكن الشيخ جاويش فى تركيا صحفيا كبيرا ولا زعيما اسلاميا لاجئا اليها فحسب، بل ان صداقته مع أنور باشا وثقة الاخير به واعتماده عليه، جعل منه واحدا من كبار الموجهين لسياسة حكومة الاتحاد والترقى لا سيما فى الجانب الشرقى من الامبراطورية العثمانية. ولاتساع نطاق صلاته بزعماء العالم الاسلامى استطاع أن يؤسس جمعية خدام الكعبة، وقد اعتبرت جريدة «التيمس» أن هذه الجمعية حزب سياسى، وأنه كان أعظم خطرا على بريطانيا ومصالحها من الحزب الوطنى المصرى، وقد قالت فى الكتاب الذى وضعته تأريخا لأحداث الحرب العالمية الاولى: «إن زعماء هذه الجمعية هم من مسلمى الهند والصين والافغان والترك، وأن بعض رسله أنفذوا الى مصر لتحريض المسلمين من الجنود الهنود على ضباطهم، فقبض عليهم وأبعدوا».

وفى فبراير سنة ١٩١٤ أسندت الحكومة التركية الى الشيخ والى شكيب أرسلان أمر تأسيس جامعة فى المدينة المنورة، وقد أنابه الخليفة محمد الخامس لوضع حجر أساسها فى فبراير سنة ١٩١٤، فقام بارساء الحجر وأذاع بيانا جاء فيه أن الجامعة الجديدة ستضم

كليات للطب، والهندسة، والمساحات الزراعية يتبعها ما يلزمها من مستشفى، ومعامل للتحليل. ثم دعا المسلمين ليدعموا هذا المشروع بمالهم.

وعهد اليه السلطان محمد فى نفس السنة بأمر تجديد كلية صلاح الدين الايوبى فى القدس، فقال عن هذا المشروع أن كلية ستقوم على تدريس العلوم الشرعية والحقوق والفنون المختلفة، واللغات المتنوعة، لتخرج أخصائيين فى هذه العلوم قادرين على الدفاع عن التعاليم الدينية، ويصلحون للنهوض بأعباء الوظائف الشرعية وتبعات الاعمال العلمية. ثم سافر الى برلين ولندن لاعداد ما يلزم للجامعة والكلية من معدات. وفى أثناء وجوده فى لندن، وقع فى ٢٥ من يوليه سنة ١٩١٤ شروع فى قتل الخديو عباس أثناء خروجه من زيارة رئيس وزراء تركيا آنذاك (الصدر الاعظم) سعيد حليم، منافس الخديو الذى لم ينقطع أمله فى أن يكون خديو مصر، وكان العرابيون يرشحونه لهذا المنصب العالى، فطاب لخصوم الشيخ جاويش أن يتهموه بأنه كان من وراء هذه الجريمة، وبقى الخديو عباس مؤمنا الى آخر يوم فى حياته بصحة هذا الاتهام.

ثم أعلنت الحرب العالمية فى ٤ من أغسطس سنة ١٩١٤ وبقيت تركيا على الحياد حتى ٥ من نوفمبر، اذ خاضت فى هذا اليوم هذه الحرب فى صف ألمانيا وضد بريطانيا وفرنسا، والثابت أن الشيخ

جاويش كان على علاقة بالساسة الالمان حتى قبل اعلان الحرب، فقد كان يؤمل أن يجد عند ألمانيا ما يعين على احراج الاحتلال البريطاني في مصر، وبالتالي الى اخراجه. وكان «البرنس هتزتلد» الالماني هو الشخصية الالمانية الكبيرة التي ندبت للتعاون مع الشيخ. فلما نشبت الحرب، اتسع نطاق نشاط الشيخ جاويش السياسي وأصبح يكثر من تردده على ألمانيا، وقد صدرت النسخة العربية في السادس من مايو سنة ١٩١٦، كما صدرت النسخة الالمانية في أغسطس سنة ١٩١٦، وقد أحتفل بصدور العدد الاول منها بحضور الجنرال ايهوف القائد الالماني، وحقي باشا سفير تركيا في برلين، وقد أصبح مكتب هذه المجلة في برلين ناديا سياسيا للمصرين والعرب وللمسلمين والشرقيين، وكان يتردد عليه كبار الساسة أمثال «زولتو» و «برناردي» و «تريبتز» وزير البحرية الالمانية صاحب فكرة الغواصات و «زمرمان» وغيره من الوزراء.

ولما وضعت الحرب أوزارها، وخرجت ألمانيا مهزومة، سدت المسالك في وجه الشيخ. فالدولتان اللتان تعاون معهما سياسيا خلال الحرب، غلبتا على أمرهما، وبلاده لا يستطيع العودة اليها، ولابد من مال لانتقاله الى بلاد أخرى، والاقامة فيها، ويداه وأيدى زملائه من رجال وشباب الحزب الوطني صفر من المال، لذلك ضاقت به وبهم الارض، وعاني الفقر والجوع. وقد وصف أحمد وفيق

الصحفى الوطنى هذه الايام فقال: «إن مأوى الشيخ جاويش فى تلك الايام كان عربة من عربات الحيوانات المكشوفة يأوى اليها فى ركن فى الشتاء الهاصر».

ثم قامت الثورة الكمالية، بقيادة مصطفى كامل، لرد الزحف اليونانى على الوطن التركى فى الاناضول، واستدعى كمال أتاتورك الشيخ جاويش ليرأس هيئة بحث ودارسة وفتوى اسلامية اسمها «تدقيقات وتأليفات اسلامية هيأتى» ويصل الشيخ الى أنقرة فى ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٢٢ ويأخذ فى اعداد ما يلزم لهذه الهيئة من المراجع، ويعد لها مكانا، ويضع لها برنامجا، ولكنه لا يلبث أن يختلف مع كمال أتاتورك، حينما تتضح نية أتاتورك فى انهاء الخلافة الاسلامية وفى اقامة حكم علمانى لا دينى فى تركيا، وأدرك الاتراك أن الشيخ لا يقرهم على أفكارهم ولا يؤيد سياستهم فأصبحت حياته فى خطر، ويعلم أصدقاؤه بذلك فيدبر سليمان حافظ المحامى وزميله محمد عرارجى المحامى بمعاونة أحمد عرارجى التاجر بالاسكندرية، للشيخ، سبيل العودة سرا الى مصر بعد أن رفضت وزارة يحيى ابراهيم (باشا) أن تأذن له بالعودة الى بلاده مع أن دستور سنة ١٩٢٣ كان قد أعلن، ونصوص هذا الدستور لا تسمح بمنع دخول المصرى الى بلاده، وقد رفع سليمان حافظ دعوى على الحكومة لهذا المنع، ولكنه آثر وزميله آخر الامر أن يضعا الحكومة أمام أمر واقع،

فسهلا للشيخ الذى عاش سنين طويلة مشردا جائعا، يترصده الاعداء أن يعود الى بلاده، وأعلنت جريدة الاخبار فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٣، أنه عاد الى وطنه. ولكنه عاد ليخوض فى الحال معركة من أحمى معارك حياته، ذلك لان الانتخابات الاولى فى ظل دستور سنة ١٩٢٣ كانت قد فتحت ليخوضها المرشحون، فرشح الشيخ نفسه فى دائرة من دوائر الاسكندرية ورشح الوفديون ضده محمد سعيد (باشا) رئيس الوزراء السابق، وحشد خصوم الشيخ قواهم ليسقطوه، فقد كانت حملاته على زعيم الوفد ومقالاته المعنونة «ظلموك يا سعد» لا تزال ترن فى الأذان، وقد أسقط ونجح خصمه بأغلبية ساحقة، فقد كان الشعور وقتذاك مع سعد ومرشحيه مع أن الشيخ كان قد وضع نفسه فى خدمة الثورة التى اندلعت سنة ١٩١٩ وكتب لهذا - وهو فى أوروبا - الى سعد واقترح أن يتم اتصاله بالثورة عن طريق أشخاص غير متصلين بالنشاط السياسى اذ كان سعد يرى أن اتصاله بالشيخ وبمحمد فريد يسىء الى الثورة باعتبار أنهما كانا على صلة بالالمان خلال الحرب العالمية الاولى، وقد كررا العرض فلم يتلقيا ردا.

وكأنما كتب على الشيخ أن يقضى حياة مضطربة، حتى حينما يعزم على أن يستقر، ففى ١١ من يوليه سنة ١٩٢٤ شرع شاب مصرى كان يطلب العلم فى ألمانيا يدعى عبد الخالق عبد اللطيف

فى قتل سعد زغلول فى داخل محطة القاهرة، وسعد يتهيأ للسفر إلى لندن ليفاوض المستر ماكدونالد زعيم العمال ورئيس الحكومة البريطانية وقتذاك، وفى الثالث عشر من الشهر نفسه، أى بعد يومين من وقوع الحادث، قبض على الشيخ جاويش وبقى معتقلا حتى ٥ من أغسطس على ذمة التحقيق فى هذه القضية، ولم يكد يستنشق نسيم الحرية حتى أعيد القبض عليه فى ٧ من أغسطس- أى بعد يومين من الافراج عنه- وزج به فى سجن الحدراء بالاسكندرية على ذمة قضية لفقت له، واتهم فيها من آخرين بأنهم عملوا على خلع الملك فؤاد لحساب الخديو عباس، وبقى الشيخ محبوسا قرابة ثلاثة أشهر بلا دليل يقام ضده، ولا حجة تبرر حبسه.

وأفرج عنه، وعاد ليرأس زمنا تحرير جريدة الحزب الوطنى التى كانت قد عادت للصدور فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٣، ولكنه لم يعد قادرا على أن يواصل كفاحه السياسى، اذ خرج من السجن مريضا بعد سنوات من الجوع والتشرد والقلق، فلما عرض عليه على ماهر (باشا) وزير المعارف أن يتولى ادارة التعليم الأولى قبل ذلك وكأنما يؤوب الى داره فقد نشأ معلما، وبدأ حياته مفتشا للكتاتيب، وعاش مشغولا بالتعليم فى بلاده، وقد بذل فى السنوات القليلة التى أتيح له أن يعمل فيها، فى هذا الميدان بعد غيبة طويلة عنه، مجهودا عظيما، ولكنه لم يمهل حتى يرى ثمرة جهاده، فقد وافاه القدر المحتوم فى ٢٥ من يناير سنة ١٩٢٩ وهو بعد فى الثالثة والخمسين من عمره،

وقد كشفت وفاته عن ضخامة العمل الذى قام به فى كل ناحية من نواحى الحياة فى بلاده، فى السياسة والتعليم والاصلاح الدينى والكفاح الاجتماعى، وفى الداخل وفى الخارج، بالقلم واللسان، والتحريض والاثارة، والتدبير والتنظيم، والتوفيق والتوجيه.

مات وهو يستعد لاستئناف اصدار مجلة الهداية الى جانب عمله الحكومى، بعد أن ساهم فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين، فكانت أحد آثاره الباقية.

لقد فاض حزن الناس من كل حزب وهيئة، وعبر شوقى مع كتاب وشعراء لا حصر لهم عن هذه المشاعر بقصيدته العظيمة.

أصاب المجاهد عقبى الشهيد   وألقى عصاه المضاف الشريد

وأمسى جمادا عدو الجمود   وبات على القيد خصم القيود

ثم قال:

طريد السياسة منذ الشباب   لقد آن أن يستريح الطريد

لقيت الدواهى من كيدها   وما كالسياسة داء يكيد

حملت على النفس ما لا يطاق   وجاوزت المستطاع الجهود

لقد صدق شوقى، فقد احتمل الشيخ عبد العزيز جاويش من أجل بلاده، وعقيدته، ودينه، ما لم يتحمله إلا الابرار والصديقون، وراح فذا بين مواطنيه ومعاصرية بالميادين التى خاض فيها معاركه وبالهدوء الذى لازمه، والابتسامة على شفتيه ووجهه يفيض دعة وطمأنينة وثقة.

عبد الرحمن فهمى

لو دقق دارســو سنة ١٩١٩ مـن عـامـة القـراء، دع عنك كـبـار المـؤرخين لتبينوا بغيـر عناء، أن هذه الثورة بدأت أولى خطاها ثم أطرد سيرها، فشب لهيبها، وأشتد أوارها، فى حين كان زعيمها، خارج البلاد يسمع أنباءها كما يسمعها غيره من الناس، لا يكاد يوجهها، ولا يلعب دورا فى كبريات أحداثها.

وليس هذا الا ما تظهره الحوادث فى بساطة مطلقة.

فسعد زغلول، الزعيم الرسمى لثورة سنة ١٩١٩ نفى محمد محمود واسماعيل صدقى وحمد الباسل الى مالطة فى ٩ من مارس سنة ١٩١٩ واطلق سراحهم بعد نحو شهر أى فى ٧ من إبريل سنة ١٩١٩ ثم سافر الزعماء، الى باريس، وبقى سعد زغلول فى اوروبا، حتى عاد الى مصر فى ٤ من أبريل سنة ١٩٢٢ فكمل غيابه عنها عامين، وهذان العامان هما فترة الثورة الخصبة، التى كانت فيها البلاد وحدة متماسكة اختفت بفضلها المنازعات، وتلاقت المعسكرات، وضمت الصفوف وتعانق الصليب مع الهلال واحتشدت

الامة تحت لواء واحد، وهو لواء الوطنية وذابت الاصوات فى صرخة واحدة، هى «نموت ولتحيى مصر» واستشرفت الاعين، وتطلعت الابصار، وتعلقت القلوب، بشعار واحد هو «الاستقلال أو الموت الزؤام».

فمن يكون اذن قائد هذه الثورة، الذى استطاع أن يخلق من جماهيرها، سيلا متدفقا متدافعا يكتسح فى طريقه كل العوائق الموروثة: الخوف من السلطة، وكراهية العمل الجماعى، وتهيب الكفاح السرى، والعجز عن كتمان أسراره، وسوء تجنيد الشباب ونقص تدريبهم على الانتقال من مكان الى مكان، لاذاعة الشعارات وأوامر العمل اليومى؟

فمن الذى قام بهذا العمل، الضخم الباهر، الذى تعددت مظاهره، والذى سرت فيه روح مصر، جلية معلنة عن نفسها، بعد طول الاختفاء، منذ تشييع جثمان بطل الوطنية المصرية، الشاب مصطفى كامل فى ١١ فبراير سنة ١٩١٨، ثم بعد معركة حرية الصحافة فى الحادى والثلاثين من مارس سنة ١٩٠٩ وما بعده من الايام.

من الذى أوحى الى الشعراء أن ينظموا القصائد، والى الزجالين أن يكتبوا الاغانى، والى الملحنين أن ينسجوا من شعور الشعب المتقد، ألحانهم العذبة، وأغاريدهم السهلة؟ من الذى صاغ الشعارات، ووضعها على ألسنة قادة المظاهرات؟ من الذى طبع

المنشورات فى الليل الساكن ووزعها فى رابعة النهار على مرأى ومسمع من جنود الشرطة وعساكر بريطانيا لابسى الخوذات الحديدية وشاكى السيوف والرماح؟ انه بطل ثورة سنة ١٩١٩ الذى نسى نار الثورة، وكان شأنه شأن جميع الابطال الحقيقيين فى القومات الشعبية والهبات الوطنية، ففى خلف هذه الحركات العنيفة السريعة، يقبع رجل ذو ارادة حديدية، زاهد فى الظهور، أو لعله لا يحسنه، صابر على العمل الجاد، بارع فى التدبير، قادر على التجميع، فيه من مزايا الزعماء البديهة الحاضرة، والاعصاب الباردة، والميل الى المخاطرة، وتنقصه بعد ذلك موهبة الكلام، ومواجهة الجماهير، والمرونة التى تيسر المناورة والمداورة.

كذلك بقى بطل ثورتنا، مجهولا، حتى فى الوقت الذى كانت يداه تجمعان خيوط العمل الثورى، فلم تهتف باسمه المظاهرات، ولم ترفع لشخصه الصور، ولم تتجه الى بيته أو مكتبه الجماهير.

فهو لم يفكر فى شىء من هذا، ولو فكر فيه، لما كان بطل ثورة سنة ١٩١٩، ولظهر على المسرح بكل أضوائه، ولعجز عن التدبير الهادىء الصامت المجهول.

***

يجب أن نقرر– بادىء ذى بدء – أن أول من فكر فى تغيير العلاقة بين مصر وبريطانيا هو السلطان فؤاد نفسه. وقد فكر معه

رئيس وزرائه حسين رشدى [1] وفكر معهم- دون أن يتصلوا بالسلطان ولا برئيس الوزراء- زعماء الجالية الفرنسية فى مصر.

وقد يدهشك هذا القول، لكنه مع ذلك، هو الحقيقة، فقد تذكر أن بريطانيا كانت سعيدة وقانعة بالحالة فى مصر، قبل الحرب، فقد كانت صاحبة السلطة الفعلية التى تستند الى حراب جيش الاحتلال، وكان هذا الوضع الذى لا «اسم قانونى له»، يريحها من الدخول فى مشكلات قانونية وسياسية، فيما لو أرادت أن تغيره الى وضع آخر. فهى لم تكف عن القول بأن الاحتلال هو اجراء مؤقت، وما دامت تركيا صاحبة السيادة القانونية على مصر لم تكن قادرة على شن حرب فعلية على بريطانيا فالفتنة نائمة، ولعنة الله على موقظها.

ولكن الحرب العالمية، نشبت بين بريطانيا من جهة، وبين ألمانيا من جهة أخرى، ثم لم تلبث أن دخلت تركيا الحرب مع ألمانيا، فاستيقظت الفتنة كلها لا فتنة واحدة، وأصبح حتما على بريطانيا، أن تتخذ قرارا فى شأن العلاقة بينها وبين مصر، لتحل محل العلاقة الواقعية التى كانت تربط البلدين.

وانتهت بريطانيا آخر الامر الى قرار اعلان الحماية على مصر،

(١) قال مثل ذلك الجنرال ويفل فى كتابه عن اللورد اللنبى فقد جاء فيه «حتى الذين كان أولى بهم أن يميلوا نحو بريطانيا كالسلطان المدين لهم بعرشه ورئيس الوزراء أصابتهم خيبة أمل»

ولكنها لم تنته الى هذا القرار فى يسر وسهولة. اذ اقتضاها اصدار أخذ وردّ طويلين من بين مختلف الجهات التى كانت ترسم وتشرف على سياسة بريطانيا فى مصر، ومن هذه الجهات وزارة الخارجية البريطانية، ووزارة الحرب، ووزارة المستعمرات. وفى داخل كل جهة، فرق ومدارس متعددة، ولكل فرقة ومدرسة، حجج وأسانيد. ولكل منها وسائلها فى الضغط. لذلك علق مصير «مصر» حينما كانت خلاله مهددة بأن تصبح مستعمرة بريطانيا، أو أحدى الممتلكات، أو على أحسن الاحوال- دولة ذات استقلال ذاتى، الاحتلال والحماية أفضل منه، لانه استقلال كان الاجانب سيعتبرون فى ظله شركاء ممتازين فى حكومة للمصريين الذين كانوا بدورهم سيهبطون الى درجة الشريك الضعيف وأوشكت أن تصبح اللغة البريطانية، بسبب هذا الاستقلال، هى لغة القوانين والتقاضى والمرافعات، أى اللغة الرسمية، لتحل محل اللغة التركية، وان ألغيت الامتيازات الاجنبية، لا حبا فى مصر، ولكن ضيقا من بريطانيا بها، لانها تقيد يدها فى التشريع ولا تمكنها من اخضاعها الاجانب لسلطانها الكامل.

ولقد حدثنا اللورد «لويد» فى كتابه «مصر منذ عهد كرومر» طويلا عن هذا كله.

فلما انتهى الرأى عند الانجليز الى فرض حمايتهم على بلادنا، كان على رأس الحكومة المصرية آنذاك حسين رشدى باشا، وكان

الخديو عباس حلمى خارج البلاد فى استانبول، ولذلك احتاج الامر الى اقامة رئيس الوزراء نائبا عن الخديو بلقب «قائمقام الخديو» وكان الوفاء، يقتضى نائب الامير، أن يرفض أن يتعاون مع الذين قاموا به، ولكن حسين رشدى، قبل الخلع وأقره، وتعاون مع الذين أقدموا عليه، وتولى الحكومة فى ظل النظام الذى أقيم على آثر الخلع

ولذلك كان الرأى العام شديد النقمة على حسين رشدى وكان يتهمه بالخيانه، ولما كان السلطان حسين كامل عم الخديو عباس، هو الذى حل محله على العرش فقد نال نصيبه من نقمة الرأى العام وكان الشريف حسين أمير مكة قد ثار بدوره على الاتراك، ووقف فى صف بريطانيا، فسرت فى العالم العربى قولة، أن وزر الخيانة انفرد به الحسينيون: السلطان حسين، والوزير حسين، والشريف حسين.

لهذا كله كان حسين رشدى رئيس الوزراء متلهفا على نهاية الحرب، ليثبت للوطنيين أنه قبل ما قبل، على مضض، لا حرصا على المنصب، بل حرصا على مصلحة بلده، ذلك لانه سياسى عملى، لا تدير رأسه العواطف، فهو يسلم بالامر الواقع الذى لا فرار منه. ولكن لا يرضى به، ولا يعده خاتمة المطاف. لذلك لم تكد الحرب تضع أوزارها، حتى طالب السلطات البريطانية بأن تأذن لوفد مصرى بالسفر الى الخارج، ليحضر مؤتمر السلام المنعقد فى فرساى لوضع الحلول المتخلفة عن حرب أربع سنوات، على أساس من

المبادىء الجميلة التى أعلنها «ودور ولسون» رئيس الولايات المتحدة، وفى مقدمة هذه المبادىء «مبدأ تقرير المصير» الذى يضع بين يدى الشعب سلطة تحديد مستقبلها، واختيار حكومتها.

فلما رفضت السلطات البريطانية، منح هذا الاذن، قدم رشدى استقالته للسلطات فى ٢ من ديسمبر سنة ١٩١٨ فلما لم يقبلها السلطان عاد فقدمها ثانية فى ٢٣ من الشهر نفسه، وبقيت معلقة، حتى قبلت فى اليوم الاول من مارس.

قال رشدى لجريدة الجورنال دى كير فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩١٤، عقب اعلان الحماية بقليل «انى أعد الحماية نعمة عظيمة لانها تزيل العقبات التى كانت تقف فى سبيل التقدم والارتقاء»

ثم قال فى ١٥ من سبتمبر سنة ١٩١٥ لجريدة الاهرام: «اذا كان جدى قد قاتل الانجليز فى حملة فريزر سنة ١٨٠٧ حبا لمصلحة مصر، فان هذه المصلحة نفسها تحملنى أنا اليوم على أن أماشيهم واضعا يدى بيدهم».

لذلك كان تلكؤ الانجليز فى التصريح للوفد المصرى بالسفر، وبشهود مؤتمر السلام، صفعة لكل آماله، كشفت له أن كل ما بناه، كان قصورا على الرمال.

وكان السلطان فؤاد، بدوره طموحا، يتمنى أن تكون نهاية الحرب، فرصة لتحسين مركزه، ورفع درجته، وزيادة سلطانه.

ولم يكن فيما أمله من ذلك، مدعاة للخوف، فقد كان يعلم- بحكم مركزه- أن الانجليز أنفسهم كانوا لا يدرون ما اذا كانت علاقة الحماية- وهى العلاقة التى فرضتها ظروف الحرب- هى العلاقة المثلى التى يمكن أن تربط بريطانيا بمصر- وقد أثبتت الايام صحة ما توقعه السلطان فؤاد. أما الفرنسيون فقد كانوا منذ البداية، لا ينظرون بارتياح، الى الاحتلال البريطانى لمصر. فقد كانت مصر - منذ الحملة الفرنسية - بل قبلها بكثير [1] أملا من أمال فرنسا الاستعمارية وبقى خيالها، على مرالسنين، يخلب بمصر ساستها. ثم جاء محمد على، فأفسح المجال واسعا للنفوذ الاقتصادى والثقافى لفرنسا، ولذلك ما كادت التحضيرات لمؤتمر الصلح فى فرساى، تنتهى فى اعقاب الهدنة المعلنة فى الساعة ١١ من يوم ١١ من شهر ١١ سنة ١٩١٨، حتى سارع رئيس الجالية الفرنسية فى مصر، بالبحث عن أصدقائه من الساسة المصريين، ليدعوهم الى التفكير فى ايفاد من يمثل مصر الى مؤتمر السلام.

وقد حدثنى حافظ رمضان (باشا) رئيس الحزب الوطنى أن هذا الفرنسى، بحث عنه فلما قابله، حرضه على السفر الى باريس وعلى تشكيل وفد مصرى الى مؤتمر الصلح. وقال لى حافظ رمضان أنه ذهب الى سعد زغلول- فيمن ذهب اليهم- بحكم كون سعد زغلول

(١) فريسينية «والمسأله المصرية» وصبحى وحيدة «فى أصول المسألة المصرية».

جارا له وصديقا، ثم وكيلا للجمعية التشريعية، فلما سمع سعد زغلول بالاقتراح، لم يتردد فى اظهار استخفافه به، وتستخيفه اياه وقال لحافظ رمضان «الى متى ستبقى عائما على جراب الحزب الوطنى».

ولكن سعد لم يلبث أن سمع- فى حفلة عيد جلوس السلطان فؤاد بالاسكندرية- من الامير عمر طوسون أن يفكر فى مثل ما حدثه به حافظ رمضان، وسمع قبل ذلك أن الحكومة تتهيأ لهذا الامر نفسه، حتى أرسل الى حافظ، لينبئه بأن ما أفضى به اليه، محل تفكيره، وليطلب اليه أن يكون على صلة به. وبلغ من اهتمام سعد بابلاغ ذلك لحافظ رمضان، أنه أرسل اليه فى كل مكان، حتى تيسر لهما الاجتماع فى مأتم قريب من دار حافظ أو سعد لست أذكر.

ولو تأملت فى كل الاطراف التى فكرت أول ما فكرت، فى عرض القضية المصرية، على مؤتمر السلام أو الصلح فى فرساى، وهى الفكرة التى انتهت باشعال ثورة سنة ١٩١٩، لظهر لك بوضوح، أنه لم يكن فيها، من يتمنى أن تشب ثورة فى البلاد ضد الانجليز، بل ليس فيها من كان يتصور أن المصريين قادرون على القيام بثورة تتحدى سلطة الحكومة والانجليز معا.

ففؤاد السلطان، ورشدى رئيس الوزارة، وعمر طوسن الامير، ليس فى مصلحتهم أن ينقلب الوضع فى مصر، بحيث تعلو كلمة

الفلاحين والعمال، والطلبة والمحامين، على كلمتهم، وبحيث يفرض عليهم أن يترضوا هذه الجموع التى الفت الخضوع وتلقى الاوامر.

بل إن الذين وجهوا الدعوة لعقد اجتماع لانتخاب هيئة تطالب بحقوق مصر، والباشوات والبكوات الذين تألف منهم الوفد المصرى الاول، لا رابط بينهم وبين العمل الثورى فى أية صورة من صوره، فقد كانوا جميعا بحكم نشأتهم، وطبيعتهم الاجتماعية، وثقافتهم السياسية، وماضيهم، رجال تفكير تقليدى، يؤمنون بالسلطة أكثر مما يؤمنون بالشعب، ويؤمنون بالتقليد، اكثر من ايمانهم بالتجديد، أما الثورة فدع حديثها جانبا فهم قوم مسالمة ومسايرة ومفاوضة، تزعجهم الجموع الصاخبة، والجماهير الغاضبة والاجتماعات الحاشدة، ولكيلا تظن أننى أتجنى، انقل من صفحة ٢٣٩ من كتاب العقاد عن سعد زغلول ما نصه:

«جلس سعد وأصحابه الثلاثة فى طريقهم الى المنفى يتساءلون، وأول سؤال.. طبيعى يخطر لهم، وهم مفارقون البلاد، هو السؤال عما عسى أن «يجرى فيهما بعد اقصائهم عنها؟ وهل تسمع بالخبر؟

وهل تملك أسباب الثورة؟» وهل تقوى القيادة العسكرية على كظم النفوس طويلا بعد هذه الضربة؟ فأما سعد فكان رأيه أن الثورة عمل شاق على «بلد أعزل» مرهق بالاعباء، مشحون بالجند، والسلاح والارصاد» وقد وطنوا- الزعماء- النفس على البقاء زمنا ليس

بالقصير فى «جزيرة مالطة، ولم يخطر لهم أن الافراج عنهم قريب، فبحث سعد عن «منزل يستأجره، وفكر فى استدعاء السيدة الجليلة قرينته الى الجزيرة، «لحاجته الى العناية الصحية، التى لا يجدها هناك فى غير المنزل، برعاية الزوجة الرءوم، ولم يفكر صحبه الآخرون فى ذلك لانهم شبان أصحاء بالقياس اليه».

لذلك ولدت هذه الثورة «يتيمة» الذين ألقوا بذورها، وحضروا لها، وفكروا فيها، كانوا فى السجون والمنافى، وكان الجيل الثانى منهم شبابا صغارا لا تأذن لهم السن بالتصدر والقيادة، فنشأت فى حجر من لم يفكروا فيها، ولم يحسنوها، بل فى حجر من كرهوها، ولكنهم اضطروا أن يتبنوها، ففعلوا كارهين ولم يلبث هؤلاء حتى بعدوا عنها ماديا، بعد أن كانوا بعيدين عنها روحيا، فقد سافر الوفد المصرى أو زعامته الكبرى على الاقل ممثلة فى سعد زغلول واسماعيل صدقى ومحمد محمود ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى ومحمد علويه وأضرابهم الى فرنسا، وبقوا بها- كلما قلت- سنتين كاملتين.

ومع ذلك فان هذا اليتم ذاته، منح هذه الثورة قوة، فقد تركها لنفسها- فتحررت من هذه الزعامة أولا، ثم أثرت فى هذه الزعامة ثانيا، فقد ورطت الثورة زعماءها فيما كان لا يخطر لهم على بال، من المواقف والتصريحات، والافعال. ولما كانت هذه الثورة قوية فى ذاتها، وفى غير حاجة الى ولى أو وصى فقد خلقت لنفسها بنفسها زعيما.

وكان هذا الزعيم، هو عبد الرحمن فهمى..

***

وعبد الرحمن فهمى واحد من الشخصيات القليلة، ذات الطابع المميز فى تاريخنا الحديث. ونعنى بالطابع المميز، طابع الذين يختلف دورهم فى حياة أمتهم، عن دور معاصريهم لا من حيث ضخامة الاثر، وطول بقائه، بل من حيث غرابة تكونهم وتطورهم وأساليبهم، وربما أسلوبهم فى الملبس أو القول. ومن هؤلاء عبد الله النديم، ومحمد توفيق البكرى، وعلى الغاياتى، وعلى يوسف، ومحجوب ثابت.

وعبد الرحمن فهمى ينتمى الى هذه الجماعة. لانه انتقل فجأة من حياة ضابط فى الجيش المصرى، وصل الى أرقى المناصب الادارية فى وقت قصير، ثم اعتزل الخدمة الرسمية زمنا، ثم بعث فجأة ثائرا، وزعيما لاكبر ثورة عرفتها مصر فى تاريخها الحديث. ثم يصبح زعيما لاول حركة عمالية منظمة، ثم يبدو أنه سيكون من اصحاب الصدارة فى بلاده زمنا آخر طويلا، فاذا به يدخل فى طور المحاق، ويختفى.

نشأ عبد الرحمن فى بيت شقيقه محمد ماهر باشا، كبير ياوران الخديو عباس حلمى، وموضع ثقته فنال عبد الرحمن عطف الخديو بسبب صلته من شقيقه هذا، الذى شغل فيها منصب محافظ

العاصمة، ثم وكيل وزارة الحربية، وبفضل هذا العطف، عين عبد الرحمن ياورا لوزير الحربية مصطفى فهمى باشا أكبر أصدقاء الانجليز. وهى وظيفة لا يظفر بها الا ذوو الحظوة من أبناء البيوتات وهى تتيح لشاغليها فرص التعرف على مداخل السياسة فى الدولة، ومخارجها، وتدنيه من كبار الشخصيات وتعرفه بأساليبهم فى القول والعمل، وصلاتهم الظاهرة والخفية، وبالتالى هى مدرسة سياسية وأداة تصقل من حسن استعداده للتقدم والترقى فى مدارج وظائف الدولة، أو فى حلبات السياسة.

ثم نقل الى وظائف الادارة، فعين مأمورا لثلاثة مراكز كانت كلها فى الصعيد. فأتيحت له فرصة معرفة جديدة، فان العمل فى مناصب الشرطة. ييسر الاتصال بالناس، وعلما بمشكلاتهم وأزماتهم، ويعينه على قياداتهم وتوجيههم، ثم رقى فعين وكيلا لمديرية القليوبية ثم الدقهلية، ثم وصل الى أعلى السلم الادارى فعين مديرا لبنى سويف ثم للجيزة وذلك فى سنة ١٩٠٨ فاذا عرفنا أن عبد الرحمن فهمى قد ولد فى الثالث من مارس سنة ١٨٧٠ وأنه تخرج فى المدرسة الحربية سنة ١٨٨٨ أدركنا أنه قطع هذا الشوط فى مناصب الحكومة من أدناها إلى أعلاها فى فترة لم تزد على ثمانية عشر عاما وكان إذ ذاك فى السادسة والثلاثين، وهى سن لم تكن تأذن لغيره بالوصول الى منصب مأمور دع عنك منصب مدير مديرية.

ولكن هذا النجاح المبكر قل أن يطول، فاما أن يعقبه كسوف، وأما أن تعقبه وفاة، وقد حدث ذلك لعبد الرحمن فهمى، فقد اصطدم بالانجليز وهو مدير، وقد كانت السلطة الحقيقية فى أيدى مفتشى الداخلية الانجلين، وقد شب عبد الرحمن فى بيت شقيقه، وكان شقيقه وطنيا اصطدم بالانجلين، حينما انتقد مليكه الخديو عباس، نظام الجيش المصرى وتدريبه، فى حلفا عند حدود مصر والسودان، واعتبر اللورد كتشنر- وكان سرداد الجيش المصرى- هذا النقد اهانة له وطلب من الخديو الاعتذار عنها، واقصاء كبير ياوران الخديو محمد ماهر باشا، من القصر الخديوى فنقل الى وكالة وزارة الحربية.

وشاب يتنفس فى هذا الجو- لو حسن استعداده- يمكن أن يكون وطنيا، ويمكن أن تؤدى به وطنيته الى الاصطدام مع الانجليز.

وقد حدث هذا فنقل من وزارة الداخلية، الى وزارة الاوقاف، فقد كانت من بين وزارات الحكومة، أكثرها خضوعا لارادة الخديو وتوجيهه، ولكنه- لانه رجل حرب كان لابد أن يصطدم براعيه نفسه، لأنه لم يحس أنه صنيعته وأنه ملزم باحترام إرادته حتى لو تعارضت مع المصلحة العامة، فكان هذا الاصطدام شهادة جديدة بمتانة خلق عبد الرحمن فهمى، فأقاله الخديو فى سنة ١٩١٣ وعبد الرحمن شاب أو اقرب ما يكون من الشباب، فقد كان اذ ذاك فى الثالثة والاربعين

من عمره مليئا بالصحة، فياضا بالحيوية، يحتاج الى عمل كثير ليستنفد به فائض هذه الثورة، وبدلا من أن يجد عملا يصرف اليه هذا الفائض، فاجأته الحرب العالمية الاولى لتشل كل نشاط، ولتقيد كل حركة، فزادت عزلة عبد الرحمن.

ولكنها كانت عزلة نافعة، فقد فتحت هذه الحرب كل احتمالات مستقبل مصر، وعرضت على الوطنيين، كل صور الجهاد التى قامت بها الدول القوية والضعيفة على السواء لتثبت وجودها ولتحمى نفسها من الفناء أو الضعف.

***

لست أحاول أن أؤرخ لحياة عبد الرحمن فهمي كلها، ولا لحياته فى ثورة سنة ١٩١٩ بأسرها، وانما قصارى ما أبغيه هو أن ندلل على أن عبد الرحمن فهمى دبر للثورة فأحسن التدبير ورعاها فأحسن الرعاية، وبذل لها الوقت والجهد والصحة والمال، فلم يبخل بشيء. وانه وحده كان عقل هذه الثورة، وأمين سرها، وموجه خطاها، وأنه كان موفقا فيما رسمه لها من خطة، وكان ملهما فيما وضعه لها من منهج، وأنه كان فى ادارته للثورة، ثوريا يقتحم مواطن الخطر، ثم سياسيا، يتقى مواضع الزلل، ثم يحسن الكتمان، والمناورة كما يحسن تألف القلوب، واقفال أبواب الشر، وسبق الاعداء الى المواقع ذات القيمة (الاستراتيجية) وانه كان عامر القلب

بالإيمان، بالثورة، وبحقوق أمته، وبالرأى العام وقوته، وبالشباب وحيويته، وبالعمال ونقابات العمال، وخطرها كسلاح، وضرورتها كوسيلة من وسائل التقدم الاجتماعى.

ولعلنا اذا أردنا أن نضرب الامثال على هذه الخصائص والمزايا، طال بنا الحديث، لولا أن القدر ساق لنا تقريرا كتبه عبد الرحمن فهمى فى ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٩، وأرسله الى رئيس الوفد المصرى فى باريس فقد جاء هذا التقرير (١) انموذجا على أسلوب عبد الرحمن فهمى فى التفكير والتدبير، أو جزءاً من عقله، كما يقولون، فقد اشتمل هذا التقرير على اثنى عشر بندا أو فقرة، فكان كل بند، علاجا لمشكلة، أو مواجهة لصعوبة، أو تحقيقا لمصلحة، فاذا ضمنت هذه المشكلات والمصالح، راعك تنوعها العجيب، كما راعتك القدرة على معالجتها جميعا فى بساطة وهدوء وبلا مباهاة ولا تفاخر.

فلنر أولا الامور التى جاء ذكرها فى هذا التقرير، توطئة للعودة اليها، للتعليق عليها.

فى البند الاول حديث عن اختيار سكرتير موظف يتقن الانجليزية والعربية، ويحسن الترجمة منها واليها وبيان لما يترتبه هذا السكرتير الموظف من مرتب ومكافأة ومصروفات شخصية، ونفقات للسفر الى باريس.

(١) دراسات فى وثائق ثورة سنة ١٩١٩– نشرها الدكتور محمد انيس

وفى البند الثاني حديث عن المحادثات مع (وليم أفندى مكرم عبيد) الذى وقع عليه الاختيار للسفر الى أمريكا، ليفتتح مكتبا فيها للدعوة للقضية المصرية، وما يشترطه وليم افندى من شروط لقبول هذه المهمة.

وفى البند الثالث وصف للمقابلة الحماسية التى قوبل بها حافظ بك عفيفى وسينوت بك حنا عضوا الوفد المصرى عند عودتهما من باريس الى مصر، وعن احتشاد جموع المشتغلين بمحطة مصر ومحطة بور سعيد والزقازيق.

وفى البند الرابع اشارة الى انزواء على باشا شعراوى عضو الوفد وعدم رغبته فى العمل مما يدل على غضبه من أمور تجرى فى الوفد وانه مع ذلك يؤثر العزلة ولا يتكلم.

وأن عبد الرحمن فهمى كان يتردد عليه ويصطحب فى زياراته رئيس لجنة الوفد المركزية فى مصر، ووكيلها، ليطيب خاطره، ويستدرجه الى العمل.

وفى البند الخامس، وصف لشعور الامة، وقوة الرأى العام فى مصر، الى الحد الذى انعدمت معه المخاوف على الحركة الوطنية من دس الدساسين ومكائدهم.

وفى البند السادس، اشارة الى موقف الصحف المصرية من الحركة الوطنية وتأييدها لهذه الحركة تطوعا، وقد كان عبد الرحمن

فهمى يحسب أنه لن يصل الى هذه النتيجة الا ببذل المال الكثير فتحقق الامل، بلا مال يبذل، ولا أجر يعطى. ويبدى سروره من أنه بات قابضا على ناصية الحال فى الصحافة.

وفى البند السابع أشارة الى أنه ارسل فى رسالة سابقة أربع نسخ من الجريدة الرسمية نشرت بها قوانين تهم الوفد فى فرنسا الاطلاع عليها.

وفى البند الثامن يشير الى المجهود الذى بذله فى نسخ محاضر المحاكمات العسكرية البريطانية فى أسيوط، لارسالها الى الوفد ليستشهد بها على عسف هذه المحاكمات وعلى قوة المقاومة الوطنية.

ثم يقترح فى البند التاسع ضم محمد فريد رئيس الحزب الوطنى الى الوفد المصرى ليتم تضامن الامة، وتكاتف صفوفها.

ثم يتناول عبد الرحمن فهمى فى البند العاشر، حركة مقاطعة لجنة ملنر التى وصلت الى مصر فى السابع من ديسمبر سنة ١٩١٩ لتقف على أسباب القلاقل التى وقعت فى مارس سنة ١٩١٩ من نفس السنة. وكيف أن الرأى العام منعقد على هذه المقاطعة وأحكامها، وما سيبذله عبد الرحمن فهمى نفسه، من جهد لاحراج الحكومة حتى تصرح بما يدل على أن موقفها من اللجنة مطابق لموقف الامة، ويختم عبد الرحمن فهمى تقريره، بالحديث عن المجهودات التى

بذلت لتعميم نقابات العمال بطول العمال وعرضها . وكيف أنه قد تشكلت لكل حرفة نقابة، وانه لم يبق فى مصر حرفة أو صنعة الا ولها نقابة.. وأنه لا يغض من قدر هذه الحركة أن الحكومة لم تعترف بعد بهذه النقابات فان النقابات «سلاح قوى لا يستهان به فى الملمات يجيب نداء الوطن بأسرع وقت».

ولا يفوته فى آخر التقرير أن يعيد ارسال صورة تقرير سبق إرساله الي رئيس الوفد. ويخشى ألا يكون قد وصل أو أن يكون حل رموزه قد تعذر علي الوفد بباريس.

***

هذه السطور القليلة التى تتكون منها كل فقرة هى فى واقع الامر بيان لمشكلة أو مهمة لا تنهض بها الا العصبه أولو العزم، فكسب الصحافة مثلا، وبسط سلطان سكرتير لجنة الوفد عليها، أمر يقال فى سطر، ولكن دون الوصول اليه، عناء أى عناء، وانشاء النقابات لجميع الحرف والصناعات، عبارة قصيرة، ولكنه عمل لا يتحقق بمجرد ابداء الرغبة، لا سيما فى تلك الظروف التى كانت فيا السلطة العسكرية الاجنبية، فى حرب مع البلاد بعامة، ومع التنظيمات الشعبية والعمالية بخاصة.

وهذا الخليط المتنوع من المهام الصغيرة والكبيرة، وصفها جميعا فى صف واحد، هو عين ما تقضيه الحياة الثورية، التى تضع

على عاتق الثوار المهام الكبرى والصغرى، فى أن واحد، فيصبحون مطالبين بتدبير بضعة جنيهات لشراء آلة كاتبة مثلا، واختيار موظف صغير لدار الحزب ثم انشاء جريدة يومية بألاف الجنيهات، واعداد مظاهرة ضخمة تواجه الالوف من رجال الشرطة والجيش، ثم عمل سرى خطير قد يقضى الى المشنقة. ثم مقابلة مندوب دولة أجنبية أو أقامة حفلة شاى لضيف ولكنك فى حاجة بعد ذلك كله الى أن تتعرف على الروح التى ينهض بها عبد الرحمن فهمى بهذه المهام جميعا.

وسأسوق لك مثلا، أو مثلين يدلان على هذه الروح وعلى المسلمين والاقباط فعينوا يوسف وهبه باشا، وكان من كبار أعيان الاقباط، رئيسا للوزراء، مؤملين أن يقع على حياته اعتداء، كهذا الذى وقع من قبل، على رئيس وزراء قبطى سابق، هو بطرس غالى باشا، فيتجدد الانقسام، الذى وقع عقب قتل بطرس باشا. فانظر كيف واجه عبد الرحمن فهمى هذا التدبير الاجرامى من جانب الانجليز، فأبطل فعله، قال فى تقرير مؤرخ ٣ من ديسمبر سنة ١٩١٩:

«لما علمت بأن الامة القبطية الكريمة استاءت جدا من قبول يوسف باشا وهبة رياسة الوزارة فى هذه الظروف الحرجة وأنها تخشى أن يسبب هذا نفورا بينها وبين الامة الاسلامية استصحبت سته من أخوانى أعضاء الوفد واللجنة وتوجهنا الى الكنيسة يوم الاحد ٢٣ نوفمبر وأبدينا لهم مشاركتنا فى تألمهم من قبول يوسف

باشا وهبه لمركزه الجديد، وأكدنا لهم أن هذا لا يمكن بحال من الاحوال أن يسبب أى فتور فى علاقتنا لانه اذا كان وجد من الاقباط خائن قبل الوزارة فى هذه الظروف الحرجة، فقد وجد من المسلمين سبعة بجواره (قبلوا دخول وزارته) ولقد كلفنا الاستاذ الشيخ مصطفى القاياتى بأن يخطب فى القوم فى هذا المعنى، وبالفعل قال كلمة لها أحسن وقع فى نفوس الجميع»

ولم يكتف بذلك فقد انتهز فرصة ابعاد محمود سليمان باشا رئيس اللجنة المركزية الوفدية وابراهيم باشا وكيلها عن القاهرة إلى الريف، فأوعز بانتخاب الأستاذ مرقس حنا وكيلا للجنة، ورئيسا لها بالنيابة «وقال أجمعنا كلمتنا على اختيار قبطى ونسند اليه مركز الوكيل ليترأس اللجنة، رادين بذلك كيد السلطة فى نحرهم ولنثبت لهم أن هذه السفاسف أصبحت بعيدة عن أفكارنا».

وفى تقرير الى سعد زغلول، فى أوائل سنة ١٩٢٠ عقب وصول لجنة ملنر، يكشف عبد الرحمن عن نضجه السياسى، وهو يتحدث عن مزايا الامة المصرية، وسمو تربيتها الوطنية:

«خطت الامة المصرية خطوات واسعة فى سبيل تطورها السياسى، ولو نظرنا الى ما تحتاجه كل أمة من الاعوام الطويلة للوصول الى درجة راقية من التربية السياسية الوطنية لتأكدنا أن المصريين تفوقوا على غيرهم من حيث قصر الزمن الذى قطعته

لادراك المكانة التى أصبحوا فيها»

ولا يملك الانسـان نفسـه من الاعجاب بكاتب التقرير وهو يعلل فى هذا التقرير سر التفاف المصريين حول قيادته أبان الثورة:

«لو بحثنا عن سر هـذا الارتباط بين الوفد والامـة لعلمنا أنه يرجع لشىء واحد هو أن الوفد يتوخى فى جميع خططه وأعماله، أن يحترم الرأى العام»

ثم يعبر احترامه للرأى العام، بصيغة أخرى فيقول:

«ان من واجبنا أن نطلعكم أولا بأول على تأثير الحوادث فى رأينا العام حتى تظل دفة الشعب فى يدكم، ولا شك أن اختلاطنا بجميع الطبقات يجعل لحكمنا قيمـة أكثر ممـا لاى حكم آخر يصدره أشخاص يعيشون فى بيئة لا يمكنهم الاحتكاك بجميع الهيئات والافراد».

وفى تقرير آخر يروى كيف نجحت مقاطعة (ملنر) وكيف فرض الحصار على لجنته، وكيف حرص كل مصرى على تجنب الاتصال بها أو الاستماع لها أو الى أى عضو من أعضائها أو الرد على أى سؤال يصدر عن أحد أفرادها ولو كان هذا السؤال عن الصحة أو الوقت ويقول فى هذا الصدد:

«أحمد الله الذى وفقنا الى أحكام عملية مقاطعة اللجنة أحكاما فاق الحد المنتظر، وأذهل الجميع هنا، وأصبح أعضاء اللجنة

الانجليزية، يتنقلون لزيارة من يتوسمون فيه خيرا لمناقشتهم أو قبول مفاوضتهم فلم يجدوا الا اعراضا وفتورا من كل مفاوضة»

ويخلص عبد الرحمن من هذا الى نصيحة يسديها الى رئيس الوفد فيقول:

«والذى أرجوه من سعادتكم، أن تقدروا الرأى العام المصرى حق قدره، فقد أصبح يقظا عاقلا، يزن الامور بميزان الحذر والدقة، وهذا شيء يجب أن نحمد الله عليه، فقد كنا نصادف الامرين من بضعة شهور مضت فى تكوين الرأى العام، وتقويته.

وما كان يدور بخلدنا، أن يصل فى هذه المدة القصيرة، الى أعلى درجة وصل اليها أقوى رأى عام فى البلاد الدستورية»

والحق أن المرء ليتساءل عن ماذا كان يحدث لو أن ثورة سنة ١٩١٩، التى ثبتت تلقائيا، بلا زعامة أو زعيم فى مارس فحملت لواءها، جموع الفلاحين بعنف، وضراوة، واستبسال روع خصومها وأربكهم، فى حين أذهلت الزعماء المصريين أنفسهم الى الحد أن أول نبأ وصل اليهم فى مالطه، أحزن سعد زغلول، أذ خيل اليه أن هذه الاضطرابات مدبرة وأنها ثمرة دسائس بريطانيا، للتأثير بها على الرأى العام العالمى، باظهار مصر، فى ثوب أمة تسلك مسلك العنف فى المطالبة بحقوقها، وأن ثورتها ليست ثورة أحرار، بل ثورة مخربين وسفاكى دماء وقتله. يتساءل المرء ماذا كان يحدث لو لم

يقيض لهذه الثورة رجل كعبد الرحمن فهمى استمر طوال سنتين يدفع بها الى الامام بحكمة ودراية، وثبات وشجاعة، مع عناية شاملة للتفاصيل والجزئيات، الى جانب المبادىء العامة والكليات.

***

الا أن عبد الرحمن فهمى أبى الا أن يلعب دورا آخر، هو دور لم يتعمده، ولم يسع اليه وأنما ساقته اليه المقادير، فكان أشبه شيء بجهاده وحياته، كمل به هذا الجهاد، وزادت به معانى حياته وضوحا.

ونعنى بذلك قضية المؤامرة التى اتهم فيها عبد الرحمن فهمى وسبعة وعشرون مصريا، والتى عرفت فيما بعد بقضية (المؤامرة الكبرى)، وقد قبض عليه وعلى زملائه المتهمين فى مايو سنة ١٩٢٠ فى الفترة التى كان فيها مشروع ملنر، معروضا على الامة.

وقد نسب الى عبد الرحمن وزملائه، انهم كونوا جميعا جمعية اسمها (الانتقام) وغرضها خلع السلطان، والتحريض على ارتكاب جرائم الاغتيال.

ومن بين المتهمين من واصل العمل السياسى، بعد هذه القضية وعرف اسمه فى تاريخ الحركة السياسية أمثال إبراهيم عبد الهادى الذى أصبح رئيسا للوزراء، ومحمد عبد الرحمن الجديلى الذى أسند اليه وكالة الشئون الدينية فى رياسة الوزارة، والدكتور محمد حلمى الجيار النائب، وحامد المليجى الصحفى، وتوفيق صليب الذى عين

رقيبا على الصحف، وكامل أحمد ثابت الذى وصل الى وظيفة مستشار محكمة الاستئناف، ومحمد لطفى المسلمى الذى انتخب نائبا عن احدى الدوائر فى مديرية الشرقية، ثم اشتغل بالمحاماة، وعبد الحليم عابدين الذى وصل الى وظيفة مدير عام الضمان الاجتماعى بوزارة الشئون الاجتماعية، ثم قرياقص ميخائيل الذى عاش أكثر حياته فى لندن، وأشتغل مندوبا عن الصحف المصرية فيها ومراسلا لها. وقد أدرك المصريون، أن القضية لم تخلق الا بقصد منع نشاط هذه الجماعة من الشباب، والحيلولة بينها وبين ما أخذت نفسها به من تنظيم العمل الوطنى، وتوسيع نطاقه من جهة، ثم القاء الرعب فى قلوب المصريين.

ولكن- كما يحدث دائما فى كل حركة وطنية- جاء الاضطهاد والاتهام الملفق، بعكس المقصود منه، فقد كانت هذه القضية، وما يجرى فيها، حديث الناس فى البيوت والمقاهى، وعربات الترام، ودواوين الحكومة، والاندية والسهرات الخاصة والعامة، وكان كل ما ينشر عنها، أو يذاع من أنبائها محلا للتعليق والتنديد، فأصبحت هذه القضية وسيلة لجمع المصريين حول شىء واحد، تلتقى عنده خواطرهم، وتتجه اليه قلوبهم، وتستوحى منه الافكار والخواطر، الفتهم وعقولهم.

وقد كان شاهد الاثبات الرئيسى، طالبا أزهريا لم يتم تعليمه

اسمه «عبد الظاهر السمالوطى» فأصبح أسمه قرين الشيطان على السنة المصريين، وفى تصورهم.

لم يخسر عبد الرحمن فهمى من اعتقاله بهذه القضية، الا صحته، أما عمله الوطنى، فقد أفاد من ذلك الكثير. ازداد الناس حبا له، وأعجابا به، وازدادوا تمسكا بالعمل الوطنى، وحرصا عليه ورغبة فى التضحية، كما ازدادوا شجاعة، واستهانة بالمخاطر، فقد رأوا فى قفص الاتهام وقريبا من حبل المشنقة، خلاصة الامة من رجالها وشبابها، والقلوب ملتفة حولهم، والنفوس بهم معجبة، والالسنة تلهج باسمهم، وتهتف بحياتهم. فى كلمة، تمثلت مصر المضطهدة المقيدة بالاغلال فى شخص عبد الرحمن فهمى، وأخولته الشبان.

وقد استمر عرض القضية على المحكمة من ٢٠ من يوليه سنة ١٩٢٠ حتى ٦ من أكتوبر من نفس السنة ، أى نحو ثلاثة أشهر.

وفى هذا اليوم أعلنت المحكمة العسكرية التى عقدت رياستها للجنرال «صولون». انتهاء المحاكمة، وبراءة ثلاثة منهم قرياقص ميخائيل، أما باقى الاحكام فقد بقيت فى طى الكتمان حتى شهر فبراير، فأعلنت وعلم الناس باعلانها أن عبد الرحمن فهمى حكم عليه بالموت، ثم خفف الحكم الى السجن ١٥ سنة مع الاشغال الشاقة، كما حكم بالموت على كل من محمود عبد السلام، ومحمد يوسف،

ومحمد حسن البشبيشى المحامى ومحمد لطفى المسلمى، وعلى هنداوى وقد خففت عقوبة هؤلاء أيضا الى مثل عقوبة عبد الرحمن فهمى.

أما حسنى الشنتناوى وتوفيق صليب وابراهيم عبد الهادى فقد حكم عليهم أولا بالسجن عشرين عاما وبالجلد ٣٠ جلدة ثم خفض الحكم الى السجن ١٢ عاما.

وقد كانت هذه الاحكام القاسية التى حكم بها على هؤلاء الابرياء، فى تهمة لا سند لها ولا أساس تقوم عليه ، وقودا جديدا، زادها اشتعالا، وزاد بفضلها قدر عبد الرحمن فهمى، فقد ثبت للمصريين أن جهاد عبد الرحمن، وضع عنقه فى المشنقة.

وقد بقى فى السجن سنتين حتى أفرج عنه فى أكتوبر سنة ١٩٢٤ مع سائر المحكوم عليهم بسبب النشاط فى سنى الثورة السابقة، وخلال هاتين السنتين لم يفت السجن فى عضده، ولم يوهن من عزمه، فقد استمر على صلة باخوانه وأعوانه المجاهدين خارج السجن، يوجههم ويتلقى أنباءهم، حتى شكا من ذلك اللواء (رسل باشا) حكمدار القاهرة الانجليزى، فقد قال فى أحد تقاريره الى ادارة الامن العام «إننى لا أستطيع أن تحمل مسئولية السيطرة على الجرائم السياسية فى هذه المدينة، ما دام أن مسجونا ومجرما

سياسيا مثل عبد الرحمن فهمى لديه من الحرية ما يمكنه أن يرتكب من الجرائم ما يشاء داخل أسوار السجن الحصينة» (١)

***

وخرج عبد الرحمن فهمى مريضا من السجن، وأذكر أنى رأيته فى اجتماع عقد باحدى المدارس الثانوية الأهلية، غير بعيد من ميدان السيدة زينب، فرأيته– وأنا بعد طفل– رأيته ناحلا، شاحبا لا يقوى على السير، ولا يسمع صوته الا بصعوبة، ثم لم يلبث حتى استرد صحته، وعاد الى نشاطه الموفور، فرشح فى دائرة عابدين، وانتخب نائبا عنها، ثم صرف أكثر جهده فى انشاء اتحاد نقابات العمال ونجح فى الخروج بهذا الاتحاد الى الحياة، وهو اتحاد ضم ١٢٠ نقابة و ١٥٠ ألف عامل (٢).

ولم يقنع عبد الرحمن فهمى بهذه الخطوة، إذ أراد أن يسبغ عليها الصفة القانونية فتقدم فى ١٧ من يوليه الى مجلس النواب بمشروع قانون الاتحاد العام لنقابات وادى النيل، ولكنه لم يلبث حتى اعتقل في قضية مقتل سرداد الجيش السير لى ستاك باشا حاكم السودان العام فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤، وبقى فى السجن ثلاثة أشهر، خرج بعدها، مدركا أن وجوده على رأس اتحاد النقابات أمر لن تسكت عليه سلطات الامن، فآثر أن يجنب نفسه مخاطر هذه الزعامة، وأن يعفى نفسه من تكاليفها وقد عزى نفسه بقوله فى مذكراته (٣)

---

(١) دراسات فى وثائق ثورة سنة ١٩١٩

(٢) المرجع نفسه. (٣) المرجع نفسه.

«وجدت أن الخطر لا شك يحدق بى دائما ما دمت على رأس العمال، اذ لا يروق للقوم أن يروا مئات الالوف من العاملين خاضعين لنظام واحد، وقانون واحد، وتحت زعامة شخص يرونه خطرا على الامن العام، لهذا اعتزلت الحركة العمالية معتذرا بأن صحتى لا تساعدنى على العمل... وهكذا اعتزلت هذه الحركة نهائيا، بعد أن وضعت الحجر الاساسى فى انشاء الاتحاد العام».

والواقع أن هذا عذر أشبه ما يكون بالذنب ولكن مبرره الحقيقى عندى أن عبد الرحمن فهمى، كان بطل ثورة سنة ١٩١٩، أعد لها، ولعب فيها أكبر أدواره، وأدوارها، فلما خبا نورها، وانطفأت نارها، لم يجد عنده الحافز الذى كان يهون عليه ملاقاة الصعاب، وييسر عليه مواجهة المخاطر، وأصبح من السهل أن يبحث عن عذر، وقد وجده في أنه وضع الحجر الاساسى لانشاء أتحاد النقابات العام.

ولقد كانت استقالة عبد الرحمن، من رياسة اتحاد نقابات عمال وادى النيل، بداية أفول نجمه وخفوت صوته، وانسحابه من الحركة العامة، اذ لو بقى زعيما للعمال، - وان عرضه ذلك للمتاعب- لضمن له مكانا فى الحركة السياسية لا يسهل انتزاعه منه.

ولكنه ألقى عصا التسيار- بعد طول الجهاد العصى- فقل قدره، وسط الاجتراء عليه، والاستخفاف بنفوذه، وقد بدا ذلك- على أجلى وجه- حينما نشب الخلاف بين سعد وعدلى فى سنة ١٩٢١، وتمزقت

الحركة الوطنية بسبب هذا الخلاف، فقد مال عبد الرحمن الى الاعتقاد بأن المسئول عن نشويه هو سعد، وقد حفظ له سعد ذلك، فلما مرت الحركة الوطنية بثانى أدوار أزمتها، أى بتولى سعد رياسة الوزارة بعد انتخابات سنة ١٩٢٣ التى نجح فيها أنصاره نجاحا ساحقا، ثم بدخول هذه الوزارة الزغلولية المفاوضات مع حكومة العمال البريطانية برياسة رمزى ماكدونالد، ثم بفشل هذه المفاوضات بعد ما عقد عليها من آمال عريضة، ثم لما بلغت الازمة ذروتها، بقتل السردار (لى ستاك) وما بدأ من ضعف سعد عن مواجهة هذا الموقف، وإيثار العافية والسلامة، بالاستقالة واللجوء الى العزلة، تأثرت علاقة سعد بعبد الرحمن فهمى، لأن الجهاد صفى، ولان شعار تلك الايام، كان «ابعد عن الشر وغن له»، فلم يعد هناك ما يبرز العلاقة القائمة علي دفع الثورة، واشعال نارها، وقد انتهى ذلك كله بالختام الطبيعى، فقد رفض سعد أن يرشح عبد الرحمن فهمى للانتخابات التى جرت فى سنة ١٩٢٦، فى ظل ائتلاف الاحزاب الذى جاء لتصفية الحكم الانقلابى، الذى جاء بدوره فى أعقاب مقتل السردار، لتصفية آخر آثار ثورة سنة ١٩١٩. وفجع عبد الرحمن فهمى اذ لم يجد اسمه، ضمن قائمة المرشحين الوفديين، وظن أن السياسة- حينما تنتهى الدفعة الوطنية- يمكن أن يكون لها قلب، أو يجوز أن تشغل نفسها باعتبارات الوفاء وما يجرى مجراها. وذهب

عبد الرحمن الى سعد يعاتبه، وندع لك وصف ما حدث نقلا عن مذكراته. (١)

قال لسعد: هب يا باشا أنى طعنت عليك حقيقة، وانقطعت عن زيارتك بلا سبب ولم أسأل عن صحتكم وقت مرضكم بلا عذر فهل هذا يؤثر فى أهليتى للترشيح؟ فقال سعد بصوت جهورى:

أما أمرك غريب! تطعن على، وتنقطع عن زيارتى، وبعد ذلك أنا أرشحك! فقلت له: وأين عملى، وأين تضحيتى التى ضحيت بها فى السجون؟ فقال احتكم للأمة. فقلت له: إننى لا أحتكم الى أناس لا يعرفون حقيقة أعمالى وخدماتى التى قدمتها للقضية الوطنية، وتلك الاعمال لا يعرفها بجملتها أحد سواك. ولهذا فانى سأحتكم الى التاريخ، وقمت غاضبا».

ولقد أحسن عبد الرحمن فهمى اختيار الحكم الذى رأى أن يعرض عليه قضيته: التاريخ! ففى الثورات عند احتدامها، يضيق مجال المنطق، ليخلى المكان واسعا وكاملا، للحركة، والجرأة، والسرعة والعاطفة والخيال.

وعندما تخبو نار الثورات، وتهبط أعلامها، وتخفت صيحاتها، يكون من العبث محاولة استعادة ماضيها، وتذكر وقائعها، لتبنى على الذكريات حقائق جديدة..

---

(١) دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩

كل ذلك، يذهب الى ذمة التاريخ. ولهذا فقد ذهب عبد الرحمن فهمى كله، الى ذمة التاريخ، «بطل ثورة سنة ١٩١٩ المجهول»

والتاريخ – للأسف – قابض بطىء كسول، ولكنه مع ذلك، يقول أحيانا كل الحق، ويقول كثيرا بعض الحق، ولكنه يتكلم فى جميع الاحوال.

عبد الرحمن الرافعى

ولد عبد الرحمن الرافعي في الثامن من فبراير سنة ١٨٨٩ في عطفة (أبو داود) بحارة (درب الحصر) بقسم الخليفة بالقاهرة، توفيت والدته السيدة حميدة محمود رضوان وهو في الرابعة من عمره، فبقي في رعاية والده الشيخ عبد اللطيف الرافعي الذي شغل وظائف عدة في القضاء الشرعي، وكان آخر ما شغله منها وظيفة مفتي مدينة الاسكندرية، ولعله كان نائب محكمتها الشرعية الكلية فقد كان الافتاء من مهام نواب المحاكم الشرعية.

وأبوه حلقة في سلسلة طويلة من رجال الشريعة الاسلامية، فقد كان جده الشيخ عبد اللطيف ابن الشيخ مصطفى ابن الشيخ عبد القادر الرافعي، وكان الشيخ عبد القادر أول من لقب بالرافعي في مدينة طرابلس بالشام، فقد كان لقبه الاول البيسار، وينتهي نسب الاسرة عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، رضي الله عنه (١)

---

(١) الدكتور عبد اللطيف حمزة «أدب المقالة الصحفية» الجزء السابع ص٥١، ص٥٢.

وكان أعمام عبد الرحمن من علماء الازهر والشريعة الاسلامية الغراء كذلك، فالشيخ عبد القادر الرافعى جاء الى مصر وقام بالتدريس فيها بالازهر، وتولى مشيخة رواق الشوام بعد وفاة أخيه الشيخ محمد الرافعى، ثم أسند اليه الخديو عباس منصب الإفتاء بعد وفاة الشيخ محمد عبده، ولكنه مات فى اليوم الثالث من تعيينه.

أما عبد الرحمن وأخوه أمين، فلم يتلقيا العلم فى الازهر، أنما تلقياه فى المدارس الابتدائية والثانوية الحكومية، وحصل عبد الرحمن على شهادة البكالوريا فى سنة ١٩٠٤، ويقول فى حديث له مع احدى المجلات الاسبوعية (١) أنه حينما جاء الى أبيه يعرض عليه رغبته فى اللحاق بمدرسة الحقوق الخديوية، صفعه أبوه صفعة مدوية، إذ كبر على المفتى أن يتلقى ابنه علم الحقوق فى مدرسة من مدارس الحكومة، ثم يعين قاضيا بعد اتمام دراسته فيها، فيقضى بين الناس بغير الشريعة وهو أمر لابد أن يكون قد حدث لأخيه الأكبر أمين الذى ولد فى سنة ١٨٨٦، أى قبله بثلاث سنوات والذى لابد أن يكون قد سبقه الى تعلم القانون فى مدرسة الحقوق.

على أن الرواية تقول إن عبد الرحمن لم ييأس من إقناع أبيه بالموافقة على دخوله مدرسة الحقوق التى أحبها، وتاقت نفسه لتلقى العلم فيها، فقد راح لأصدقاء والده الذى يعرف أنه لا يرد لهم طلبا،

---

(١) مجلة الاذاعة ١٩٥٧/١١/٣٠ مع عبد التواب عبد الحى

فمـا زالوا به حتى رضى، وحقق لعبد الرحمن رجاءه، ولا يبعد أن يكون عبد الرحمن قد طمأن قلب والده بأنه سيعمل محاميا، وبذلك لن يقضى بين الناس بغير شريعة الاسلام.

وزامل عبد الرحمن في المدرسة أحمد ماهر وعبد الحميد بدوى.

وأتم عبد الرحمن دراسته العليا في سنة ١٩٠٨.

كانت سنوات الدراسة فى الحقـوق، هى فـترة تألق (مـصطفى كامل)، وكان صوته قد غزا قلوب الشباب، وفتح لهم طريقا جديدا للحياة يحدوهـم فيه الامل فى جلاء المحتلين عن بلادنا، وحبب لهم القتال فى سبيل هذه الغاية الرفيعة، وقضى على هذا الاستسلام الكريه الذى جاء فى أعقاب صد . ة الاحتلال، فعاث بفضله أعوان ذلك الاحتـلال فى البلاد فسـادا، وكادوا يقنعـون الناس بأن مـقاومـة الانجليز عبث لا جدوى منه، ولا نفع.

كان عبد الرحمن الرافعى يتردد على مقهى يصنع صاحبه شراب الليمون الفاخر، فوجد هناك جريدة «اللواء» فقرأها، فاذا بعالم جديد يفتح له الابواب، وأحس بقلمه بين أصـابعه، ليـجيب على صيـحات صاحب «اللواء» العذبة الملهبة، وأناشيده الجميلة المجلجلة: «بلادى بلادى لك حـبى وفـؤادى»، و«لو لم أكن مـصـريا لوددت أن أكـون مصريا»، «أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة»، «هم يقولون إن وطنى لا وجود له، وأنا أقول إنه موجود وإنى أشعر بوجوده بما

آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه»، «قد قليل لى أكثر من مرة إنى أحاول محالاً، وحقيقة تصبو نفسى الى هذا المحال»، «لا معنى للحياة مع اليأس».

والحق أن هذه الكلمات القصيرة البسيطة، كانت تحمل من الايمان، وتصور من الامل ما لا قبل لشاب أن يبقى بعدها، ساكنها غير مبال بما يجرى فى بلاده.

وكان عبد الرحمن الرافعى، خليق بأن يتأثر بها، هو وأخوه أكثر من سواه. فقد ولد لأسرة تحفظ القرآن وتتذوقه، وتعلمه للناس، وتنفقه فى الشريعة وتطبقها، وجو تتردد فيه آيات القرآن والحديث عن الشريعة، يطبع الشباب الناشىء فيه على تذوق جمال اللغة وعلى الاستجابة للدعوة الى الجهاد.

وقد ولد عبد الرحمن فى عطفة (أبو داود) وفى حارة درب الحصر وفى حى الخليفة، أى ولد مع الفقراء المصريين، وفى الحى الذى نشأ فيه مصطفى كامل بالذات، وشاب فقير متعلم، لا سيما اذا كان موضوع دراسته القانون والحقوق، يعرف جيدا أن الحياة بغير حرية، هى شر من الموت.

وقد عبر تأثر عبد الرحمن بمقالات «اللواء» وصاحب اللواء سريعا، فقد أخذت يكتب فى اللواء، ونستطيع أن نتصور مدى فرحته، عندما رأى أول مقال له فيها، أى فى نفس الجريدة التى

يكتب فيها أستاذه وزعيمه مصطفى كامل ولما ذهب بعد ذلك اليه ليقابله فى دار اللواء، كان الاستاذ والتلميذ قد تعارفا قبل المقابلة، ولكن كان لابد للمقابلة أن تجرى ليحس الشاب أنه بعد أن تحدث الى الزعيم قد قطع على نفسه عهدا بأن يبقى وفيا له ولمبادئه.

ويقول عبد الرحمن الرافعى ان مصطفى كامل وعد بأن يوفده الى أوروبا ليدرس الصحافة ولكن الاجل وافى الزعيم فى نفس السنة التى حصل فيها عبد الرحمن على شهادة الحقوق، فقد لحق مصطفى بربه فى فبراير من تلك السنة، وتخرج عبد الرحمن فى مدرسة الحقوق فى يونية من السنة نفسها.

ولكن وفاة مصطفى كامل لم تحل بين عبد الرحمن والاسترسال فى الكتابة لجريدة «اللواء» فبعد أن استفتح عمله الصحفى بمقال عنوانه «تجمع الشعور الوطنى وتبدده» تعليقا على مذبحة دنشواى طال نفسه، وزادت ثقته بقلمه، فكتب مقالا مسلسلا فى تسع عشرة حلقة، ناقش فيه تقرير المعتمد البريطانى «الدوق جورست» وأحس قراء «اللواء» بأن كاتبا جديدا ولد، وأنه يتناول مشكلات الوطنية محللا ودراسا، وجاء الشبان يسألون عنه ليناقشوه ويتعرفوا عليه فأدرك أنه احتل مكانا فى صفوف الوطنيين، وأن لهذا المكان تبعاته والتزاماته.

ولكن الصحافة لم تكن فى ذلك الوقت عملا يستطيع أن يدفع له

الناس، فقد كانت موارد الصحافة، لا سيما الوطنية منها، شحيحة، لذلك لبى عبد الرحمن الرافعى دعوة صديقه وزميله فى الحزب الوطنى (أحمد وجدى) واشتركا معا فى مكتب للمحاماه فى الزقازيق فزادت هذه الشركة صلتهما بالحزب توثقا، فقد كان أحمد وجدى وطنيا رفيع القدر، ومحاميا لم تشهد المحاكم فى مصر أندادا كثيرين مثله: اتساع ثقافة وحلاوة عبارة وجمال أداء وقوة شخصية. ولما كانت محكمة الاستئناف التى تنظر قضايا مديرية الشرقية هى محكمة المنصورة فقد فتح الزميلان مكتبا فى المنصورة بالاضافة الى مكتبهما فى الزقازيق ، ثم استقل بهذا المكتب الاخير عبد الرحمن، وبقى فيه حتى نحو سنة ١٩٣١ حين عين محمد زكى على المحامى مستشارا بمحاكم الاستئناف، وترك وبقى مكتبه الى آخر أيام حياته لم يغيره قط.

لما توفى مصطفى كامل، وجد عبد الرحمن الرافعى فى خلفه محمد فريد أستاذا يستطيع أن يحبه ويألفه فى الوقت نفسه، فقد كان مصطفى كامل ناريا تتقد شخصيته بلهيب زعامة واسعة الافاق، بعيدة الصوت مما قد يجعله أبعد عن متناول الايدى، فى حين كان محمد فريد، زعيم الدراسة والبحث والتدبير والتأصيل. كانت حياة مصطفى كامل كالسور القصار فى القرآن، آيات قصيرة سريعة موسيقية، وكانت حياة محمد فريد كالسور الطوال، تفصل وتشرح

وترسى القواعد، وتؤصل الاصول، وكان عبد الرحمن الرافعى أقرب الى هذا المزاج، وأشبه به. فلم يكن أسلوبه فى الكتابة ولا منهجه فى الكلام أو المرافعة أو الخطابة، ولا سعيه فى الحياة متوهجا حماسيا، رنانا يخطف الابصار بريقه، ويستوقف الاذان وقعه. فاتصلت أسبابه بأسباب محمد فريد واقترب منه كثيرا وسافر معه فى سنة ١٩١١ الى روما لحضور مؤتمر السلام، وزارا معا ايطاليا وفرنسا وألمانيا والنمسا. وتراسلا حينما أوقع محمد فريد بنفسه عقوبة النفى الاختيارى سنة ١٩١٢ وبقى منفيا سنتين حتى اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى فى أغسطس سنة ١٩١٤ فأصبح النفى إجباريا، وظل محمد فريد فى أوروبا حتى وافاه الاجل فى ١٥ نوفمبر عام ١٩١٩ فى غربته الموحشة فى برلين.

ومحمد فريد هو فى واقع الامر مؤسس مدرسة العمل السرى ضد الاحتلال البريطانى، فكان عبد الرحمن الرافعى بحكم صلته الوثيقة به وتأثره الشديد بشخصيته وبأسلوبه فى العمل الوطنى أحد أركان هذه المدرسة التى ضمت فيما ضمت: شفيق منصور المحامى الذى حكم عليه بالموت شنقا فى قضية مقتل السردار، وأحمد ماهر، ومحمود فهمى النقراشى وعبده البرقوقى وحسن كامل الشيشينى وسليمان حافظ وغيرهم. وقد آلت زعامة هذه المدرسة الى عبد اللطيف الصوفانى فاستمر يديرها بشجاعة واستهانة بالمخاطر،

مع دأب ومثابرة وحرص الى آخر أيام حياته.

فلما شبت ثورة سنة ١٩١٩ وكان عبد الرحمن الرافعى آنذاك محاميا فى المنصورة لعب دورا هاما فى تأجيج نارها، وفى توزيع منشوراتها ثم فى الاشتراك في حلقات وخلايا الاغتيال السياسى الذى وجه الى البريطانيين وأعوانهم.

وقد استطاع شبان الحزب الوطني وزعماؤه منذ الايام الاولى للثورة أن يضغطوا على سعد زغلول وأخوانه الذين كانوا ينهجون نهجا معتدلا فى قيادة الثورة، وقد أحس الانجليز بذلك وعبر عنه اللورد «ملنر» فى التقرير الذى كتبه عن أسباب ثورة سنة ١٩١٩ اذ قال:

«إن الهيئة المستحقة للاعتبار المعروفة بالوفد التى يرأسها سعد زغلول والتى تتسلط على عقول المصريين تمام التسلط- ولو فى هذا الحين على الاقل- مؤلفة من أعضاء أكثرهم ليسوا من الغلاة المتطرفين، بل أصلهم من حزب الامة القديم الذى كان غرضه التقدم الدستورى تدريجيا، بخلاف الحزب الوطنى الذى هو حرب الثورة ومعارضة البريطانين» (٣).

وقد قدر المحامون دور عبد الرحمن، فلما اجتمع مجلس نقابتهم فى ١١ من مارس سنة ١٩١٩ برياسة الاستاذ أحمد لطفى المحامى

---

(٣) عبد الرحمن الرافعى «ثورة ١٩١٩» ص٩٣

- ووكيل الحزب الوطني- ضم اليه عبد الرحمن مع غيره وأصدر قرارا باضراب المحامين لمدة أسبوع، وكان هذا أول اضراب فى الثورة، فقد تلاه اضراب المحامين الشرعيين ثم اضراب عمال العنابر فى ١٥ مارس، ثم أعقبت ذلك مظاهرة السيدات فى ١٦ مارس.

وقد حدثنا عبد الرحمن الرافعى عن ذكرياته عن ثورة سنة ١٩١٩ فجاء فى هذه الذكريات (٤):

«لما حدثت مظاهرة المنصورة يوم ١٨ مارس سنة ١٩١٩، تلك المظاهرة الدامية التى أطلق فيها الرصاص على المتظاهرين وقتل تسعة عشر منهم، كنت فى القاهرة، وعلمت وأنا بها أن قائد القوة العسكرية البريطانية فى تلك المنطقة أنذر سكان المدينة بأنه اذا حدثت مظاهرة أخرى فانه سيلقى مسئوليتها على أربعة منهم عينهم بأسمائهم وهم: محمود بك نصير، والدكتور محمود سامى، والاستاذ عبد الوهاب البرعى، وأنا، وأنه سيأمر بضربنا بالرصاص فى حالة قيام أية مظاهرة.

وكانت المواصلات منقطعة، وكنت معتزما العودة الى المنصورة لأتعهد الروح العامة فيها، فقابلنى صديق قدم منها وأفضى الى بأمر هذا الانذار، ورغب الى أن أبقى فى العاصمة لكيلا أستهدف لتنفيذ

---

(٤) عبد الرحمن الرافعى «ثورة ١٩١٩» ص١٧٤

ما توعدونا به، فرأيت فى نفسى شعورا قويا لم أعرف مصدره، أو سببه يدفعنى الى العودة الى المنصورة بالرغم من تحذير أخوانى والاقربين، فأخذت أبحث عن سبيل للعودة، وكانت السكك الحديدية مقطوعة، وما أصلح منها كان السفر عليه ممتنعا الا بترخيص من القيادة البريطانية بالعاصمة وكانت ترفض كل طلبات السفر التى يتقدم بهما المصريون غير الموظفين، وكذلك شأن السفر بالسيارات فضلا عن حدوث فجوات فى الطرق الزراعية تمنع مواصلة السفر فيها، ولم يبق سوى السفن الشراعية (المراكب) تنقل الناس بطريقة النيل وفروعه الى الجهات التى يقصدونها، وقد شاعت هذه الطريقة فى تلك الايام، وارتفعت لذلك أجور السفر ارتفاعا كبيرا، فطفقت أبحث عن رفقاء لى يقصدون المنصورة أو البلاد التى فى طريقها، فأجمعت الى نخبة من الاصدقاء والمعارف، وأهتدينا الى صاحب سفينة شراعية كان قادما من المنصورة ويسره العودة اليها فيربح ذهابا وايابا، فطلب منا سبعة جنيهات أجرة الرحلة فقبلناها عن طيب خاطر لانها كانت أجرة زهيدة بالنسبة لما كان يطلبه أصحاب المراكب فى ذلك الوقت، وكانت فى ذاتها يسيرة اذا وزعناها على المقتدرين منا.

وتواعدنا على أن نلتقى بمرسى روض الفرج يوم ٢٦ مارس فى الساعة الأولى بعد الظهر، فالتقينا فى الميعاد وركبنا السفينة بعد أن

اشترينا ما يلزمنا من المئونة لمدة ثلاثة أيام.

وأقلعت بنا السفينة فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر الى القناطر الخيرية، وفى أثناء الطريق قابلتنا باخرة حربية من بواخر الدوريات البريطانية التى كانت تجوب النيل لتعاون القوات المسلحة على قمع الثورة، فخشينا أن تمنعنا من متابعة السير، ولكنها لم تتعرض لنا بسوء، وتابعنا السير فوصلنا الى القناطر الخيرية قبيل غروب الشمس، واجتزنا هاويس الرياح التوفيقى فى نحو ساعة، وتابعنا السفر ليلا الى بنها، وكان الجو باردا، فقد كنا فى فصل الشتاء والليل غير مقمر والسماء مقنعة بالسحاب فأخذت السفينة تسير الهوينا فى بطء وعلى حذر لان مياه الرياح التوفيقى كانت منخفضة وشواطئه مرتفعة، مما يزيد الخطر فى ظلمة الليل، فلما قاربنا الوصول الى بنها فى نحو منتصف الليل أشار علينا النوتى أن لابد من رسو السفينة على بعد كيلو متر من كوبرى بنها، والا تجتاز هذه المنطقة والا استهدفت لاطلاق النار عليها الشاطىء، وشعرت ببرودة الجو، اذ كان مبيتنا فى العراء تقريبا، ولم نستعد بغطاء كاف، ولم يكن مما يتفق والحالة النفسية للثورة أن نعنى بغطاء أو فراش ومع ذلك قضينا ليلة هادئة، لم نشعر فيها بأى تعب أو عناء..

فأكلنا منشرحين، واستأنفت السفينة سيرها على طول الرياح التوفيقى».

آثرت نقل هذه السطور الكثيرة لانها ترسم صورة للذين لم يشهدوا ثورة سنة ١٩١٩ من أولادنا وشبابنا، فالتذكير بهذه الصورة نافع، ولان هذه الصفحة نادرة فى كتب عبد الرحمن الرافعى، إذ قل أن تجد فى كل ما كتب شيئا يصور نفسه أو يعبر عن تجاربه أو يروى ذكرياته، وهذه الصفحة تريك أيضا أسلوب عبد الرحمن الرافعى البسيط السهل الواضح.

هدأت الثورة، وأطلق سراح من جبل طارق، وكان قد نقل اليه من جزيرة سيشل فى المحيط الهندى، وكانت بريطانيا قد أصدرت فى ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ تصريحها الذى أذنت فيه للسلطان أن يمنح البلاد دستورا، وقد وضعت الدستور فعلا لجنة ألفتها الحكومة مع ثلاثين فقيها ووزيرا سابقا وعينا من أعيان البلاد، ثم جرت الانتخابات فى سنة ١٩٢٣، فاكتسح الوفديون الانتخابات إذ ظفروا بـ ١٩٥ مقعدا فى حين لم ينل المعارضون الا ١٩ مقعدا، وكان أحد هذه المقاعد من نصيب عبد الرحمن الرافعى الذى خاض المعركة فى دائرة مركز المنصورة ضد مرشح الوفد، وأحد كبار أعيان الدقهلية، ويحدثنا عبد الرحمن الرافعى عن هذه الانتخابات فيقول:

«رشحت نفسى فى دائرة مركز المنصورة معتمدا على الله، ومستندا الى مبادئى وشخصيتى وماضى فى الحركة الوطنية، وكان الوفد قد رشح ضدى على بك عبد الرازق من أعيان المنصورة فكان

موقفى حرجا، اذ كان المندوبون والناخبون عامة مع تقديرهم لى مترددين بين انتخابى وانتخاب من رشحه الوفد، وكانوا يسألوننى: لماذا لم يرشحك الوفد؟ أو لم يترك لك الدائرة؟».

وتألفت لجنة وطنية لتأييد ترشيحى أخذت تجوب الدائرة وتوزع المنشورات على المندوبين والناخبين للدعوة الى انتخابى. وكان لطلبة الدقهلية لجنة تسمى (لجنة الطلبة العامة بالدقهلية) ساهمت فى المعركة الانتخابية، وكان استثنوا دائرة مركز المنصورة، فمع أنهم كانوا فى الغالب وفديين، آثرونى على مرشح الوفد، وعملوا ذلك بوازع من ضميرهم ووجدانهم.

وقد أصبت أثناء الحملة بمرض التيفوئيد فى يونية سنة ١٩٢٣ ولزمت الفراش نحو شهرين، اشتد بى خطر المرض فى خلالهما حتى أذن الله بالشفاء، وقامت اللجنة أثناء مرضى بالطواف بدلا عنى فى بلاد الدائرة..

وجاء يوم الانتخاب أخيرا فى ١٢ من يناير سنة ١٩٢٣ بعد حملة طالت إذ بدأت فى أبريل من العام السابق، ففاز عبد الرحمن بـ ١٧١ صوتا وفاز منافسة بـ ١٧٠ صوتا، وكان عدد المندوبين الذين أعطوا أصواتهم ٣٤١، ويقول عبد الرحمن «إن هذا الصوت كان حديث الناس فى مجالسهم، وقد قال الذين شهدوا اعطاء الاصوات إن أحد المندوبين وكان متقدما فى السن أدخل ليعطى صوته، فلما سأله،

رئيس لجنة الانتخاب عمن ينتخبه أجاب على الفور: «عبد الرحمن الرافعى» ثم سكت هنيهة وتلعثم قائلا: بل أريد على عبد الرازق، فرفض رئيس اللجنة عدوله عن رأيه واعتمد صوته لى، وأخبرنى الذين شهدوا هذا الحادث أنهم سألوا الرجل بعد ذلك عما دعاه الى العدول فاعترف لهم بأنه كان يريد اعطاء صوته لعلى عبد الرازق، ولكن أسمى جرى على لسانه عفوا دون تفكير منه، وتحدث الناس كثيرا عن نجاحى بصوت واحد وقال لى بعض الصوفية انه صوت الله».

وطعن فى انتخاب عبد الرحمن الرافعى باعتبار أنه لم يحصل على نصف عدد أصوات الناخبين إذ بلغ مجموعهم ٣٤١ صوتا، فكان يجب أن يحصل على ١٧١ صوتا ونصف صوت لا ١٧١ صوتا فقط، وقد رفضت لجنة الطعون بمجلس النواب هذا التفسير، وجبرت الكسر لصالح عبد الرحمن الرافعي.

دخل عبد الرحمن الرافعى مجلس النواب ، ففتح مع زميله عبد اللطيف الصوفانى صفحة ذات أهمية كبيرة فى حياتنا البرلمانية فقد نهض هذان الوطنيان بعبء المعارضة فى مجلس نواب كانت أغلبيته الساحقة وفدية، وكانت الحكومة وفدية، تتمتع بزعامة رجل جعلت منه الاساطير نبيا أو وليا، تهتف الاجنة فى البطون باسمه، وتكتب عناية الله هذا الاسم على أوراق الشجر!!.

ولم يكن سعد زغلول رئيس الحكومة زعيما محبوبا فحسب، بل كان محاميا يحب الجدل، ويعرف كيف يحاور ويداور خصومه فى المناقشة، مستغلا مكانته التى لا تدانيها مكانة فى البلاد، وفصاحته التى كانت تسكر المعجبين به، ولذلك كان العبء الملقى على كتفى الصوفانى والرافعى ثقيلا، ولكنهما نجحا فى الاضطلاع به فى أمانة وكفاية وشجاعة وثبات، فراحت هذه المرحلة من الحياة النيابية فى بلادنا مثلا رائعا للمعارضة التى توجه الحكومة ولا تحاول إحراجها لاسقاطها، وتتحدث بروح المواطن المحب لبلاده الذى يبصر بالاخطاء دون أن يمد بصره الى مغنم ولا ربح. والحق أن الصوفانى والرافعى، لم يكن يمكن أن تساورهما مطامع من أى نوع، فقد كان عدد نواب الحزب الوطنى فى هذا المجلس ثلاثة أو أربعة على الاكثر، وأقلية بهذا القدر من الضآلة لا يمكن أن تطمع فى تأليف وزارة، ولا الوثوب الى حكم..

وقد كنت أتوق أن أرسم لك صورة لجلسة من جلسات مجلس النواب المصرى سنة ١٩٢٤ التى شهدت حوارا بين الصوفانى والرافعى من جهة، وبين سعد زغلول من جهة أخرى، والحق أنه كان شيئا ممتعا حقا أن ترى الصوفانى بعمامته وجبته، فى مكانه من الجانب المخصص للمعارضة بالمجلس وهو يتدفق ويهدر مصاولا أخطب خطباء مصر فى ذلك العهد مع أنه لم يكتمل له من الدراسة

الازهرية والقانونية مثلما اكتمل لسعد زغلول ثم أن تسمع بعد ذلك عبد الرحمن الرافعى، فى هدوئه العميق، وبساطة الفاظه وبعده عن أساليب الخطابة البراقية، ولو شهدت جلسة من هذه الجلسات لا شفقت على سعد زغلول وقد ضاق عليه الخناق، فصاح: «لا تحرجونى فان من أحرج زغلولا فقد أحرج الامة»..

ثم وهو يقول: «هل عندكم تجريدة؟» أى هل عندكم جيش لا وقف مشروعات الرى التى بدأ بها الانجليز فى السودان؟ فيرد عليه الرافعى فى هدوء وتواضع: «اننا كنا ننتظر أن نستمد الامل من كلمات دولة الرئيس لا أن نسمع كلمات تبعث اليأس فى النفوس»..

وقد تحدث عبد الرحمن الرافعى عن تجربته فى المعارضة فقال(٥) «كنت فى هذا البرلمان معارضا، وقد تألفت المعارضة فى بداية الحياة البرلمانية من نواب الحزب الوطنى، وكنا لا نزيد عن أربعة وهم: عبد اللطيف الصوفانى وأنا والدكتور عبد الحميد سعيد والاستاذ عبد العزيز الصوفانى، حملنا لواء المعارضة فى مجلس النواب، وتبادلنا بيان وجهات نظرها فى مختلف المناسبات، وكانت غايتنا من المعارضة أن نجعل من النيابة أداة جهاد وقفا على الزود عن حقوق البلاد، ومجال توجيه للحكومة الى الاخذ بوسائل الاصلاح فى شتى نواحيه، وبعبارة أخرى اعتبرنا الحياة البرلمانية استمرارا لحياة الجهاد الذى كنا نساهم فيه من قبل».

(٥) فى أعقاب الثورة المصرية- الجزء الاول- ١٥٤

ثم قال عن أول خطبة له، وهى الخطبة التى ألقاها فى جلسة ٢٩ من مارس سنة ١٩٢٤: «كانت جلسة هامة، حضرها سعد وبقية الوزراء، وكان دورى فى الكلام يأتى بعد عبد اللطيف الصوفانى بك، وقد قوطع فى بعض العبارات، ولكن المجلس تركه يستكمل كل ما أراد الافضاء به، وفى أثناء خطابه همس فى أذنى هارون سليم أبو سحلى نائب فرشوط، وكان يجلس خلفى ناصحا لى أن أتنازل عن كلمتى لانه يرى المجلس غير موائم للمعارضة فلم ألق بالى نصيحته، وتكلمت معارضا فى دورى، فالقيت من المجلس أصغاء تاما وحسن استقبال..»

وقتل السير (لى ستاك) سردار الجيش المصرى فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ووجهت الحكومة البريطانية الى الحكومة المصرية انذارا كأنه أنذار دولة منتصرة لدولة مهزومة، فنفذ سعد زغلول بعض ما جاء فى هذا الانذار، إذ دفع للحكومة البريطانية تعويضا قدره نصف مليون جنيه عن مقتل رجل واحد، كأن حكومة مصر هى التى قتلته، وكأنه لم يقتل فى شوارع لندن قبل حادث اغتيال السردار بسنتين، الماريشال ويلسن القائد العام للجيش البريطانى ورئيس أركان حربه فى الحرب العالمية الاولى، وبعد ذلك قدم سعد زغلول استقالته، وهو تصرف لا يمكن تفسيره وقد أدهش هذا التصرف ذاته اللورد لويد چورچ المندوب البريطانى فى مصر إذ قال فى كتابه «مصر منذ عهد

كرومر» لو أن سعدا بقى فى الوزارة لوقعنا فى حرج ما كنا ندرى كيف نخرج منه.

وفى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٤ حُل البرلمان المصرى وبقى معطلا حتى قام ائتلاف بين الوفديين والدستوريين سنة ١٩٢٦ وجرت انتخابات فى ظل هذا الائتلاف، ولم يرشح عبد الرحمن نفسه فيها ولا فى الانتخابات التى جرت فى ظل دستور سنة ١٩٣٠ الذى أعده اسماعيل صدقى، كما لم يرشح نفسه فى انتخابات سنة ١٩٣٦، الى أن أخذ مكانه فى مجلس الشيوخ فى سنة ١٩٣٩ حيث بقى عضوا فيه الى سنة ١٩٥١.

ويمكن أن يقال إجمالا إن عبد الرحمن الرافعى لم يعد عنصرا هاما من عناصر الحياة السياسية فى مصر منذ حل البرلمان فى سنة ١٩٢٤، وانه انصرف الى عمله الاكبر وهو سلسلة «تاريخ مصر القومى»، الذى صدر الجزء الاول منه فى أخريات سنة ١٩٢٨ والذى انتظم ستة عشر جزءا صدر آخرها سنة ١٩٥٩.

وقد وضع الى جانب سلسلة تاريخ مصر القومى كتابين أحدهما بعنوان «مذكراتى»، وهو يضم خواطره ومشاهداته فى الحياة ما بين سنتى ١٨٨٩ و١٩٥٢، والثانى بعنوان «شعراء الوطنية فى مصر» وهما كتابان لم يلتفت اليهما أحد.

وقد لا يذكر الناس أن عبد الرحمن الرافعى عين وزيرا للتموين

فى وزارة حسين سرى التى شكلت فى ٢٥ من يولية سنة ١٩٤٩ والتى استقالت فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٩، فكأنه شغل منصب الوزارة ثلاثة أشهر وتسعة أيام.

أصبح اسم عبد الرحمن الرافعى وسلسلة تاريخ مصر القومى قرينين، فقد طغى هذا العمل الوطنى الادبى الكبير على كل ما عداه من جوانب نشاطه وانتاجه. فالناس اذا ذكر اسم عبد الرحمن الرافعى لا يذكرون المحامى الذى أصبح نقيبا للمحامين، ولا البرلمانى الذى نهض مع الصوفانى يحمل علم المعارضة فى أول برلمان لمصر الحديثة، ولا الشيخ الذى أخذ مكانه فى مجلس الشيوخ نحو اثنى عشر عاما، ولا الوطنى الذى تتلمذ على مصطفى وفريد، وسار على دربهما، وأصبح زعيما من زعماء دعوتهما، ولا الوزير الذى شغل منصبه الوزارى فى وزارة من وزارات الانتقال، ولا عضو لجنة الدستور فى سنة ١٩٥٤، ولا عضو مجلس الآداب والفنون، بل إن الناس لا تذكر له كتبه الثلاثة الاولى: «حقوق الشعب» الذى ظهر سنة ١٩١٢، «نقابات التعاون الزراعية» الذى ظهر سنة ١٩١٤، ولا «الجمعيات الوطنية» الذى ظهر سنة ١٩٢٢، مع أن هذه الكتب أعمال وطنية وادبية ، وآثار سياسية ودستورية تضفى على عبد الرحمن الرافعى صفة السياسى الرائد، والوطنى الذى يبشر بالمبادىء، ويبذر بذورها فى ثوب المعلم والداعى.

ولسنا نحب أن نجارى هذا الاتجاه العام، الذى قصر دور عبد الرحمن الرافعى على التاريخ لبلاده، ونرى أن من حق تاريخه وتاريخ مصر الحديثة علينا أن نتحدث عن كتبه الاولى التى لو اتصل صدور مثلها، وراجت الافكار التى انطوت عليها بين صفوف الشباب وسهل عليهم أن يحصلوا على زاد منها ويتأملوا فيها، ويفيدوا منها، لانحسرت موجة الامية السياسية التى سادت بلادنا منذ كمل الاجهاض الوطنى فى أعقاب ثورة ١٩١٩، هذا الاجهاض الذى جعل غذاء الشباب المصرى الثقافى، ومعينه الفكرى مجلات تكتب بالعامية السوقية وتملأ صفحاتها وأنهارها بأخبار الزعماء الخاصة، وبالفكاهات الجافية والتعليقات المبتذلة، الى آخر سمات هذا الجدب الروحى الذى لا نزال نعانى من آثاره حتى اليوم.

وأول هذه الكتب هو كتاب (حقوق الشعب). وفى مكتبتى نسخة مجلدة من هذا الكتاب كانت أصلا فى مكتبة عبد الرحمن الرافعى نفسه، فهى تحمل اسمه على كعب غلافها المجلد، وقد ضاعت الصفحة الاولى منه، صفحة العنوان، فكتبها بخط يده، وقد لخص موضوع الكتاب على الغلاف بالقول المأثور «تبتدىء القوة حيث ينتهى الضعف». ظهر هذا الكتاب سنة ١٩١٢، وبذلك يكون أسبق الكتب السياسية فى مصر المعاصرة، فقد سبق الى الظهور كتاب جان جاك روسو، ورواية زينب للدكتور هيكل، إذ ظهر أولهما سنة

١٩٢٣، وظهرت الثانية سنة ١٩١٤، ولا يوجد بين زعماء مصر السياسيين من جميع الاحزاب، فيما عدا هيكل، من يستطيع أن يزعم أنه مد يده الى القلم، وكتب كتابا أو رسالة أو مذكرة فى هذه الحقبة أو فى السنين العشرين التالية له، فقد تأخر صدور كتاب حافظ رمضان «أبو الهول قال لى» الى سنة ١٩٤٥.

وكتاب « حقوق الشعب » هو فى حقيقة الامر، رسالة ، قال عبد الرحمن أنه يوجهها الى فئتين من الامة كانتا دائما جنود الحرية فى كل البلاد: رجال الغد، الذين أعد نفسى واحدا منهم وأعتقد أن عليهم واجبا كبيرا هم مدينون به نحو الله ونحو الامة، وهو واجب العمل لتحرير بلادنا».

ثم قال:

«أردت فى هذا الكتاب- من جهة - أن أطرح بين يدى اخوانى نموذجا مختصرا للعمل على أداء واجبهم نحو الامة، ثم تخيرت من جهة أخرى فى وضعه طريقة أغلب المؤلفين الغربيين الذين وضعوا الكتب والمؤلفات لتعميم حقوق الشعب ونشر النظريات الدستورية وقصدت من ذلك أن يكون هذا الكتاب كمجموعة دروس لمبادىء الحقوق العمومية وبسط العلاقات بين الشعوب والحكومات حتى لا يحرم عامة القارئين من عرفان تلك المبادىء الضرورية لكل مجتمع يريد أن يكون حرا.

«فى البلاد الحرة الراقية تعنى نظارات المعارف بتدريس هذه المبادىء فى المدارس وتحث المؤلفين على وضع المؤلفات لها حتى يتلقن الطلبة مبادىء حقوق الشعب ويشبون وقد تنزلت تلك المبادىء فى افئدتهم منزلة العقائد، أما فى بلادنا، فلا تحفل الوزارة بهذا العلم الجليل حتى فى مدرسة الحقوق فانهم يجعلونه فى أخريات العلوم ويحرمونه من كل عناية».

وقد أدار الحديث فى هذا الكتاب العظيم حول مناقشات جرت فى أحدى قرى الريف، بين مجموعة طلبة المدارس العالية من جهة ومجموعة من أبناء الريف منهم العمدة، والثرى المحافظ، والشاب الازهرى، وقد وصفهم فقال: «الاول اسمه الشيخ متولى وهو شيخ ممتلىء نشاطا وغيرة، متشبع بالآراء الوطنية، شديد التعلق بها، والثانى أسمه الشيخ عبد العال، وهو رجل جامد اعتاد الخضوع للحكام، والنفور من التكلم فى سياسة الحكومة. والثالث شيخ العرب عبد الغفار وهو من الذين توطنوا البلاد بعد أن قضوا زمنا طويلا يعيشون عيشة بدوية، والرابع اسمه الشيخ محمود وهو من أذكياء الازهريين، جمع بين العلوم الدينية، وشىء من العلوم العصرية.. وكان فؤاد قد استحضر معه عددا من «العلم» (جريدة الحزب الوطنى بعد اللواء) الذى يصل باسم والده، فأخذ يتلو على الحاضرين ما فيه من المقالات..»

ويكفى أن تتضح لك صورة بناء هذا الكتاب لتقف على مدى ما كان يتسم به تفكير عبد الرحمن الرافعى من التقدم، فقد أبى أن يجعل الحديث فى القاهرة فجعله فى الريف، وجمع فيه بين طلاب العلم فى المدارس العالية، وبين أهل القرى، وجعل موضوعات الحديث مسائل دستورية هى من القانون الدستورى جوهره، فالاجتماع الاول دار حول: ما هى الحكومة؟ والحكام وكلاء الامة، والمجلس النيابى، وحكومة الشعب، وفى الاجتماع الثانى، تناول هذا الاجتماع الريفى الحضرى الحكومة الاسلامية ومبادئها ونظرية العقد الاجتماعى، وفى الاجتماع الثالث تبادل المجتمعون الرأى فى أرقى حكومات الشعب، وحق الانتخاب العام، وهكذا توالت الاجتماعات حتى بلغت عدتها خمسة عشر اجتماعا، وفى الاجتماع السادس عشر خلص المتناقشون والمتباحثون الى النتيجة التى يجب أن يخلصوا اليها وهى: كيف نصل الى الحرية؟.

والقارىء لهذا الكتاب يستطيع أن يتبين فى يسر أنه لم يكن كتابا خطابيا يردد كلمات الشعب وحقوقه فى صراخ أجوف، وثرثرة فارغة، بل انه يعرض دروسا فى المشكلات الدستورية بعبارة سهلة بسيطة، وهو ينثر فى هذا الحوار كل ما يحتاج اليه طالب علم القانون الدستورى من حقائق ونظريات.. والاشادة بالفلاح، وتأكيد فكرة توثيق الصلة بينه وبين المثقفين تترقرق على صفحات الكتاب

مما يزيد شعور الانسان بالالم، لان هذا الكتاب لم يكتب له الرواج في حينه، ولم يعد طبعه بعد ذلك.

ويعتبر كتاب «الجمعيات الوطنية» الذى ظهر فى سنة ١٩٢٢ الحلقة الثانية فى كتاب «حقوق الشعب» لانه دراسة تفصيلية لتاريخ الجمعيات التى وضعت دساتير فرنسا والولايات المتحدة والمانيا وتركيا الكمالية بعد ثورتها، وهو كتاب علم وسياسة لا تزال قراءته إلى اليوم نافعة للمشتغلين بالسياسة والقانون الدستورى، والتاريخ السياسى.

أما كتاب «نقابات التعاون الزراعية» فقد تناول فيه عبد الرحمن الرافعى نظام النقابات الزراعية وتاريخها وثمراتها، وسرد فيه تاريخ التعاون فى مصر ونظامه ونقاباته ومنشآته، وفى رأيى أن هذا الكتاب وثيقة من وثائق تاريخنا السياسى المعاصر دال على أن بذور نهضتنا الاخيرة القيت فى تربة حياتنا السياسية منذ سنوات طويلة أوشكت أن تكون نصف قرن، وأن أكبر ما ابتليت به بلادنا هو انقطاع حلقات تطورنا الروحى بعضها عن بعض، فكتب عبد الرحمن الرافعى لم تمهد لكتب يكملها بقلمه ولا بقلم سواه، فراحت هذه المجهودات كروافد يجرى كل منها فى اتجاه، ولا تتجمع فى نهر كبير، مما أطال سنى القحط الروحى، وزاد من صعوبات البعث، وعودة الروح.

***

أمـا سلسلة تـاريخ مـصـر القـومى بأجـزائه السـتـة عـشـر
ضـخم، يسـتـمـد قيـمـتـه من تكامله وتسلسله، فـقـد احـتل م
المكتبة المصرية، والمكتبة العربية بأجزائه جميعا، فلم يعد أحـ
جزءا بعينه من هذه السلسلة الا عند الرجوع الى هذا الجزء فر
أو واقعة، أما فيما عدا ذلك من الاحوال، فالسلسلة تذكر مجتمعا
يحدث أن ناقش أحـد النقاد جزءا من أجـزائهـا، ولم تظفر حـلـقـة
دون حلقة، بالثناء أو الاستهجان. فهى لبنات متساوية ومتشابـ
وقيمتها مستمدة من تساندها وتماسكها.

وقـد نمت نمـو الشـجـرة من البـذرة، فلم تتـوال أجزاؤها بنـاء ع
خطة مرسومـة أصـلا، بل كـبرت الشـجـيرة فـأصـبـحت شـجـرة، م
التطور الطبيعى، فقد قال عبد الرحمن الرافعى إنه شرع فى وضـ
هذه المجموعة سنة ١٩٢٦، أى بعد صـدور كتابه تاريخ (الجمعيات
الوطنية) بأربع سنوات، وقد بدأ فى تناول هذا المشروع بقصد وضع
كتاب عن مصطفى كامل، ولكنه رأى البحث فى مـبدأ ظهور الحركة
القـومـيـة والتطورات التى تعـاقـبت عليـهـا، فـأخـذ يدرس الادوار التى
تقـدمت عـصـر مـصـطفى كـامل ليـقف عند حـد يصـح اعـتـبـاره مـبـدأ
الحركة القومية (٦) فرجع الى الثورة العرابية فإذا به يرى أسبابها
ومقدماتها ترجع الى الحركة الفكرية والسياسية التى ظهرت فى عهد
اسـمـاعـيل، وأن هذه الـحـركـة مـا هـى الا تطور للروح القـومـيـة التى

(٦) فى أعقاب الثورة المصرية– الجزء الثالث ص ٤

ى مسرح الحوادث السياسية منذ أواخر القرن الثامن
عد طول الطواف اعتبر عصر المقاومة الاهلية للحرب
ة هو نقطة البداية فى سلسلته، ومن هنا تطورت الفكرة عنده
يخ لمصطفى كامل الى تاريخ لادوار الحركة القومية جميعا،
تار الله – على حد تعبيره – وبدأ فى تنفيذه فى سنة ١٩٢٦
ن أرجأ هذا التنفيذ سنة بعد سنة، فخرج أول اجزائه فى آخر
، ١٩٢٨ وهو يتضمن ظهور الحركة القومية فى عصر المقاومة
عبية التى اعترضت الحملة الفرنسية، وفى أواخر سنة ١٩٢٩
ن الجزء الثانى ويشمل الفترة من إعادة الديوان فى عهد نابليون
ى جلاء الفرنسيين عن مصر فى سنة ١٨٠١، ومن جلاء الفرنسيين
تى ارتقاء محمد على عرش مصر سنة ١٨٠٥. وفى سنة ١٩٣٠
صدر الحلقة الثالثة، وهى تتناول تاريخ محمد على وفى سنة ١٩٣٢
ظهر كتاب عصر اسماعيل فى جزأين وفى سنة ١٩٣٧ أخرج «كتاب
الثورة العرابية والاحتلال البريطانى» وفى سنة ١٩٤٢ أصدر كتاب
«مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال»، وقد أخر هذا الكتاب عن
ترتيبه الزمنى، إذ كان يجب أن يسبق كتابيه عن مصطفى كامل
الذى ظهر سنة ١٩٣٩، وعن محمد فريد الذى ظهر سنة ١٩٤١، فقد
ثقل عليه أن يؤخر صدور هذين الكتابين كل المدة الواقعة بين سنة
١٩٢٦ وسنة ١٩٣٩، وقد كان التاريخ لهما هو الباعث على اصدار

المجموعة كلها. وفى سنة ١٩٤٦ أخرج كتاب ثورة سنة ١٩١٩ فى جزءين، وفى سنة ١٩٤٧ ظهر الجزء الاول من كتاب «فى اعقاب الثورة المصرية»، ثم ظهر الجزء الثانى فى سنة ١٩٤٩، والجزء الثالث فى سنة ١٩٥١، ثم أصدر جزءين عن مقدمات ثورة سنة ١٩٥٢ وعن الثورة ذاتها، ظهر أولهما فى سنة ١٩٥٧ وظهر الثانى فى سنة ١٩٥٩، وقيل انه كان بسبيل اصدار كتاب ثالث يتناول السنوات الاخيرة من تاريخنا.

ويقول الرافعى بعد أن فرغ من وضع كتابه بأجزائه الستة عشر «إنى لم أقصد من هذه الستة عشر مجلدا، التى قضيت فى وضعها واخراجها خمسا وعشرين سنة، أن أؤرخ لمصر الحديثة فحسب، بل قصدت الى جانب ذلك أن أساهم بقسط متواضع فى رفع معنويات الشعب والنهوض بوعيه القومى، وبمستواه الاخلاقى والوطنى».

ولا شك أنه وفق الى ذلك فأوفى على الغاية مما يرضى نفس أى عامل اتجهت ارادته الى تحقيق أمل استشرف اليه، فما من شاب قرأ هذه السلسلة حتى يحس ان صورة بلاده الوطنية فى مائة وخمسين عاما قد اكتملت أمامه وأنه يرى فيها آثار روح واحدة تتجسد الحركات والثورات والانتفاضات، الواحدة بعد الاخرى، على الرغم مما يبدو أحيانا من فترات الانقطاع والفتور.

ولا شك أن مما أعانه على تحقيق هذه الغاية النبيلة التى

استهدفها عبد الرحمن الرافعى، انه لم يكن مؤرخا أو عالم تاريخ، بقدر ما كان وطنيا أخذ على عاتقه أن يجمع صحائف بلاده الوطنية صفحة بعد صفحة وسطرا بعد سطر، لا يستوقفه البحث العلمى ليحلل ويعلل ويرد النتائج الى أسبابها، فى افاضة وتوسع، وتقص وتعقب، ولا يرسم الشخصيات بظلالها وخلفياتها، ولا يدع لعواطفه الشخصية، ولا لتجاربه الذاتيه منفذا الى كتابه، فهو مجموعة من الوقائع، تبدو- لا سيما فى الاجزاء الاخيرة- منفصلة تتعاقب تعاقبا زمنيا، دون رابط من تعليق المؤلف ولا جهد منه ليجمع شتاتها ويبرز معانيها، ولكن هذه البساطة، أبرأت الكتاب من صفات وخصائص كانت خليقة أن تجعله عند الشباب أبعد منالا وتجعله فى تحقيق ابراز صورة مصر خلال القرن ونصف من الزمان، أقل حظا من النجاح فالتحليل والتبسط، والافاضة والتعليق تبطىء معها سرعة تعاقب وقائع الكتاب. وذاتية الكاتب فى الشرح والتصوير، قد تنفر قارئا أو قراء بعينهم. فالسلسلة بصورتها التى ظهرت بها، كانت أقرب الى الصحيفة المحايدة، التى تروى الوقائع، وتدع للقارىء أن يستخلص معانيها.

ومن ثم كان تشبيه عبد الرحمن الرافعى بعبد الرحمن الجبرتى تشبيها ينقصه التوفيق الا فى أن كليهما يحمل اسم عبد الرحمن وان كليهما وضع كتاب تاريخ عن مصر، فمزاج الجبرتى وأسلوب

كتابه يختلف عن مزاج الرافعى واسلوب كتابه. فالجبرتى نارى الطبع، ويومياته تتفجر بذاتيته، وهو يصف ويرى ويتدخل فى سياق الوقائع بشخصه وروحه وطابعه الخاص، وقد كان هدف كتابه الاول أن يترسم لشخصيات عهده، ثم أخذ يكتب مذكرات يومية يروى فيها الاحداث، فى حين لا يقع نظرك فى كتب الرافعى على تأثر ذاتى واحد، فقد رأى مصطفى كامل وسمعه، ورأى محمد فريد وعاونه فى عمله وسافر معه، وتراسل واياه، ثم أبّنه وترجم له كما ترجم لمصطفى ولغيرهما ممن عاصرهم وعاش معهم، فلم يرو لك واقعة مما رأى، ولا رأيا مما سمع. وقد كنا جديرين بأن نظفر منه بصور قلمية لرجالات مصر الذين عرفهم، تثرى أدبنا السياسى، ولكن شاء مزاج الرافعى واسلوبه أن يدع لنا الوقائع وحدها تتكلم وتصف وتروى.

***

وصف عبد الرحمن الرافعى منهجه السياسى وتطوره الفكرى من مرحلتى الشباب والرجولة فقال فى مقدمة كتابه عن ثورة سنة ١٩١٩:

«إذا كنت قد أرخت ثورة ١٩١٩ ومجدتها فانى مع ذلك لا أدعو الى الثورة فى ذاتها، وسيرى القارىء من ذكرياتى عن الثورة أنى لست من أنصار العنف ولا أدعو اليه، بل أدعو الى النضال بالوسائل السليمة».

ثم قال:

«كنت سنة ١٩١٩ لا أزال في الثلاثين من عمرى، أزاول مهنتى (المحاماة) فى المنصورة وكانت تغلب على نزعة الشباب، وأتوق الى أن تسلك الامة سبيل العنف فى جهادها، أما الان فانى أميل الى مبدأ عدم العنف واراه أقوم السبل وأقربها إلى النجاح والتقدم، وبعبارة أخرى لست من دعاة الثورة، واوثر عليها التطور».

وقد كان عبد الرحمن الرافعى صادقا غاية الصدق وهو يقول هذا الكلام، فقد كان تطرفه أثناء ثورة سنة ١٩١٩، تطرف الروح العامة التى جرفت فى سبيلها وأمامها الكثيرين، فانتزعت حتى بعض من لا عهد لهم بالوطنية من معاقل جمودهم، وجعلت منهم قادة لفترة قصيرة، وأعان على استجابة عبد الرحمن لهذا الانفجار الثورى أن الثورة صادفت سنى شبابه فتبادلا الحرارة، أعطته من نارها، ومنحها من نار شبابه، ثم هدأ كل شيء، وعاد عبد الرحمن الى حقيقة طبيعته التى وصفتها طبيعة الاعتدال والتسامح والهدوء ولا شيء من ذلك يدينه الى الضعف، ولكن كل ذلك يبعده عن طائفة المتطرفين، وان شئت الحقيقة، فعبد الرحمن الرافعى هو أكثر المتطرفين اعتدالا، أو هو أكثر المعتدلين تطرفا، فهو بعد أن انتهى دوره فى برلمان سنة ١٩٢٤، لم يشترك فى عراك، بل ولا فى جدل حاد، انصرف الى عمله فى المحاماة يزاوله فى هدوء، والى تاريخ مصر الحديثة يكتبه فى مثابرة، وصفاء نفس، وجلد.

ولعل من آيات اعتداله، ما رواه الدكتور محمد حسين هيكل (٧) من أن ابراهيم الهلباوى جاء الى المنصورة سنة ١٩١٣ ليترافع فى أحدى قضاياه، فاجتمع به هيكل والرافعى وهما آنذاك محاميان شابان، فأفضى اليهما الهلباوى بأنه سيرشح نفسه لانتخابات الجمعية التشريعية فلم يتردد هيكل فى أن يصارح الهلباوى بأنه لن يصادف فى هذا الترشيح نجاحا، إذ أن الناس لا تزال تذكر له مرافعته فى قضية دنشواى، وأن هذه القضية ليست قضية عادية ككل القضايا، أما الرافعى، فلم يكن من هذا الرأى، إذ شجع الهلباوى على ترشيح نفسه، ولكن الهلباوى أخذ برأى هيكل، الذى كان الرافعى أحق بابدائه، ولكن الرافعى كان سمح النفس، وكأنه الحياء وقد تجسد انسانا، حتى كان يخيل الى أنه إذا خلا لنفسه لم يختل عن حيائه، فاذا وقع نظره على صورته فى المرآة اكتسى وجهه بحمرة الخجل، وأشهد أن الايمان كان يملا قلبه حقا فقد امتحن بوفاة ابنه ووحيده، فذهبت اليه لأعزيه وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى اشفاقا من اللحظة التى رأى فيها الوالد المفجوع ثم دخلت اليه فى مكتبه فاذا بنظرى يقع على صفحة وجه متلألىء بنور الطمأنينة، وإذا بابتسامة رضا وسكينة تعلو شفتيه حقا لا مجازا، وأذا بالرجل هادىء واذا حياؤه وحده – وليس الحزن– هو الذى يدعوه الى أن يغض بصره، ويخفض صوته.

رحمة الله وأسكنه فسيح الجنات.

(٧) مذكرات فى السياسة المصرية– الجزء الاول– ص٥٥

على عبد الرازق

مضى الشيخ على عبد الرازق الى ربه بعد أن نشر على الناس كتابا صغير الحجم لم تزد صفحاته عن المائة الا قليلا، ولكنه كان مع صغر حجمه أشهر الكتب التى أخرجتها المطابع فى البلاد الناطقة بالعربية خلال قرن من الزمان.

ولم يدانِ كتاب الشيخ على عبد الرازق فى الشهرة وذيوع الصيت إلا كتاب صغير الحجم أيضا، وتأبى الصدفة الا أن يكون صاحبه أزهريا كذلك، وأن يكون أسمه «عليا»، ذلك هو ديوان «وطنيتى» الذى نظم قصائده الشيخ «على الغاياتى»، فحكم على محمد فريد بالحبس ستة أشهر لانه قرظه، وعلى مؤلفه بالحبس سنة غيابيا، اذ كان قد آثر الهجرة الى تركيا، ثم الى أوروبا.

وتأبى الصدفة أيضا الا أن يكون هناك كتاب آخر ذائع الصيت لازهرى ثالث، هو كتاب «فى الشعر الجاهلى» للشيخ طه حسين.

وكانت هذه الكتب جميعا خليقة بأن تطلع على الناس فلا يلتفتون اليها أو قد يلتفتون اليها ولكن لا يثيرون من أجلها هذا الضجيج

الذى صاحب الكتب الثلاثة، لولا أن السياسة أرادت أن تتخذ من كتاب فى تاريخ الاسلام السياسى، ومن ديوان شعر ومن بحث فى تاريخ الادب العربى، وسائل لتحقيق أغراض تجاوزت الكتب ذاتها، وما فيها، وإن كان كافة ما فى هذه الكتب جديدا، ومثيرا للفكر فى مصر وفى البلاد العربية، وجديرا بأن يدعو الناس الى الجدل والمناقشة، والى الدرس والمراجعة.

فالتعليق على هذه الكتب التى أخرجها للناس ثلاثة من الازهريين لا تكمل له أدواته، ولا يهتدى الى وجه الحق، فى قيمة ما انطوت عليه، الا بالاحاطة بالظروف السياسية التى لابست مولد كل كتاب وطلوعه على الناس.

والظروف السياسية المتصلة بكتاب الشيخ على عبد الرازق، ترجع الى ما قبل صدور هذا الكتاب بنصف قرن من الزمان.

فقد احتل الانجليز مصر فى سنة ١٨٨٢ ودخلت جيوشهم القاهرة عاصمة البلاد فى ١٤ سبتمبر من تلك السنة، ولما استتب الامر للمحتلين عملوا على اذاعة أنهم جاءوا لينقذوا الفلاح من حكم الخديويين الذى كان يسلط على أهل الريف فى مصر الكرباج، ويمتهنهم بأعمال السخرة، وقد حقق الانجليز وعدهم فمنعوا استعمال السياط، وأوقفوا أعمال السخرة، ولكنهم فعلوا شيئا آخر كان لا بد لهم أن يفعلوه، ذلك أنهم أنشأوا طبقة جديدة تدين لهم

بالثروة وبالجاه وبالنفوذ فى المجتمع الجديد، وبعبارة أخرى أنشأوا أرستقراطية التركية الشركسية التى أوجدها حكم محمد على، والتى كانت تجمع فى يديها مقاليد الامور فى ظل الخديو، وتتمتع بالضياع و «الابعاديات» الواسعة فى ريف مصر وصعيدها وتبدى فى الوقت نفسه من ضروب الاحتقار والتعالى للمصريين ما كان يكوى بالألم نفوس الذين حصلوا شيئا من العلم فى الازهر، أو الذين حققوا شيئا من الثورة بفضل نشاطهم الزراعى أو التجارى، لم يكن فى الماضى السابق على عهد الاحتلال البريطانى بكوات مصريون ولا باشوات مصريون الا عدد قليل ظهرت طلائعهم الأولى فى عهد سعيد، ثم زادوا قليلا فى عهد اسماعيل، فلما كان الاحتلال البريطانى، زاد دورهم فى المجتمع بروزا، وأصبح لكل مديرية من المديريات فى الوجهين البحرى والقبلى، زعماء من هذه الارستقراطية منهم الباشوات ومنهم البكوات، وبات من السهل أن نرمز الى كل اقليم من أقاليم مصر بزعيم من هؤلاء، ينتمى الى عائلة من العائلات كبيرة العدد، موفورة الحظ من الثروة. وهذه الارستقراطية المصرية، كانت ارستقراطية زراعية، تستمد جاهها من نفوذها من الثروة العقارية وهى بحكم هذا شديدة الاتصال بالفلاح، وبتاريخه القريب، وبما كابده وعاناه على يد الخديويين، ولاسيما الخديو اسماعيل، لذلك لم تكن تكره شيئا كراهيتها لهذا

الخديو ولعهده، ولإجداده، ولم تكن تملك نفسها من الاقرار بالجميل للاحتلال البريطانى إن سرا وإن جهرا، وهى على كل حال لا تتحمس كثيرا فى انتقاد عيوبه، بل لعلها لم تكن تحس بثقله على صدر البلاد، ولا بما يكبل به العقول والقلوب فقد كانت فى بحبوحة من العيش، تتقلب فى أحضان النعمة والسلطة، ويتعلم أولادها فى مصر وفى أوروبا، ولا ترى سياطا، ولا يصيبها امتهان.

لذلك كان فى مصر، عقب السنين الاولى للاحتلال، جيلان: جيل شهد عهد الخديويين فهو كاره له، ميال للانجليز، وعلى رأس هذا الجيل أعيان الريف الجدد، الباشوات والباكوات زعماء العائلات الفنية. وجيل ولد بعد الاحتلال، أو قبله ولكنه لم يشب عن الطوق الا بعده،، فلم ير الا هذا الكابوس الجاثم على صدر الوطن، والذى يقيد حركته ويستنفد حيويته، ويفرض عليه من صنوف الذل وألوان التضييق، ما لا سبيل الى السكوت عليه، أو الرضا به.

أما زعماء الجيل الاول، فقد كان زعماء الانجليز فى أشد الحاجة الى أن يجتمعوا فى تنظيم، وأن يسمع لهم صوت، [1] لان ذلك يخفف من كراهية الجيل الثانى لهم، ويشتت أفكارهم، ويثنى عزمهم عن القيام بأى عمل عنيف، أو مقاومة منظمة للاحتلال.

وقد تم هذا، فكان لزعماء الارستقراطية حزب هو حزب الامة،

---

(1) Egypt Since Cromer bY Lord Loyd

وكان لهم صحيفة سياسية هى «الجريدة»، وكان لهم كاتب هو أحمد لطفى السيد.

وكان للجيل الجديد حزب هو «الحزب الوطنى» وكانت لهم جريدة هى «اللواء»، وكان لهم زعيم هو مصطفى كامل. كان حزب الامة لا يضيق الا بالخديو، ولا يتوثب الا عليه، ولا ينقد الا أخطاءه، فى حين كان لطيفا مجاملا، بل قل متوددا وصديقا للاحتلال البريطانى ومعتمده، وقد حدثنا الدكتور هيكل فى مذكراته بان كاتب حزب الامة الاستاذ أحمد لطفى السيد راح يروج ابان الحرب العالمية الاولى التى بدأت سنة ١٩١٤، وانتهت سنة ١٩١٨، لفكرة مؤداها انه اذا لم يكن بد من الاحتلال، أو اذا لم يكن ثمة سبيل الى الاستقلال الوطنى، فليكن الحكم فى بلادنا للانجليز، فهم خير الحاكمين. وقد التقت فى هذه الدعوة المنكرة جريدتا «المقطم»، صحيفة الاحتلال البريطانى السافرة، و «الجريدة» لسان حال حزب الامة. وقد أغضب هذا الموقف الدكتور محمد حسين هيكل وأثاره، وكاد يفسد علاقته بأستاذه لطفى السيد.

وبعد أن انتهت الحرب العالمية الاولى، وانفجرت ثورة سنة ١٩١٩، اختفى حزب الامة، وانتقل أكثر زعمائه، الى حزب الاحرار الدستوريين، الذى كانت أسرة عبد الرازق، من أكبر دعائمه. وواصل الحزب الجديد سياسة حزب الامة المندثرة، وورث سياسته القائمة

على أساسين: التلطف والتودد الى الانجليز والتصلب والتشدد وأحيانا التوثب والمخاشنة للسلطان أو الملك.

في ضوء هذا التاريخ يجب أن نقرأ كتاب «الاسلام واصول الحكم».

.. فلم يكن الاحرار الدستوريون يحبون الملك فؤاد، ولم يكن الملك فؤاد يحبهم، وقد اصطدم بزعيمهم ثروت، وسعى لاحراجه، ثم لاخراجه من الوزارة سنة ١٩٢٢، واصطدم بمحمد محمود سنة ١٩٢٩، وبلغت العلاقة بين الملك فؤاد ورئيس وزارئه في سنة ١٩٢٩ من السوء الى الحد الذي استطاع معه محمد محمود أن يصحح للصحف البريطانية ما أذاعته من أنه سيعود من بريطانيا الى مصر مع الملك فؤاد على نفس الباخرة، فقال: الملك سيعود معى.

وقد كانت هذه المخاشنة مما يحمد للاحرار الدستوريين، لو لم تكن حبال الود ممدودة بينهم وبين دار الحماية البريطانية، ثم دار السفارة البريطانية على الصورة التي فصلها الدكتور هيكل في مذاكراته المتسمة بالصراحة وبالشجاعة معا.

خرجت تركيا من الحرب العالمية الاولى قزما مثخنا بالجراح، بعد أن كانت عملاقا مرهوب الجانب، شديد البطش يمتد سطانها الى أكثر مما أمتد اليه سلطان أية امبراطورية سابقة، فقد خضع لها شرق أوروبا حتى النمسا، وخضع لها الشرق الادنى كله، وشمال

البحر الابيض المتوسط، وجزر كثيرة فيه، وحاولت أوروبا أن تزحزح هذا السلطان عن أوروبا المسيحية ثلاثة قرون أو يزيد، فتكسرت سيوف تلك المحاولات ورماحها، على صخرة امبراطورية بنى عثمان الصلدة.

لكن امبراطورية بنى عثمان كانت خليطا من شعوب متنافرة، بعضها مسيحى، وبعضها من المسلمين، بعضها فى أوروبا، والبعض الثانى فى اسيا، والبعض الثالث فى أفريقيا، ولم تكن لهذه الامبراطورية الا سياسة واحدة، هى السيف والنطع. ولم يكن لديها ما تقدمه للشعوب الخاضعة لها، من حضارة أو ثقافة، حتى الدين الذى قامت عليه، لم تحسن الدعوة له، أو عرضه على العالمين، فلم تر أوروبا منه غير وجه حاكم متجهم، وحكومة فاسدة تفشو فى ظلها الرشوة والدسيسة، والخوف والنفاق.

لذلك كان لابد من أن يقوم قانون الحياة الاسمى، قانون لا بقاء الا للاصلح، بعمله، فتداعت الامبراطورية، وخرجت لا تملك من حطام مجدها القديم الا ميناء استامبول فى أوربا، وكادت تضيع من صميم أرضها فى الاناضول أجزاء ائتمرت ايطاليا وفرنسا واليونان على نهبها، لولا أن خرج من هذه الاطلال المتداعية الضابط مصطفى كمال الذى قاد فلول الجيش العثمانى فى معركة ظافرة ضد غزوة يونانية يؤيدها لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، وسلمت أرض

الاناضـول لتركيا، وانفرد الضابط مـصطفى كمـال بالسلطة فى بلاده بعد أن أصبح محرر وطنه، وزعيم حركته الاستقلالية. ولما انتقل اليه عبء توجيه دفة سياسـة بلاده قرر أولا أن يزيح عن تركيا كل أثقال زعامتها الاسلامية وثانيا أن يقطع كل صلاتها بالشرق، وثالثا أن يحاول ما أستطاع أن تعيش تركيا مع أوروبا كاحدى دولها، تلبس لبسها، وتستعمل حروف لغتها، وتطبق قانونها.

فكان من ضـمن مـا رمى به الى البـحـر سلطنة بنى عـثـمـان فأصبحت تركيا دولة علمانية لا دينية.

هوت الخلافة الاسلامية بعد أربعة عشر قرنا متصلة، وقد اتخذت هذه الخلافة خلال خمسة قرون من هذه القرون الاربعة عشر تركيا موطنا حتى سقطت فى ٢ مارس ١٩٢٤م واستيقظ المسلمون ذات صباح، فاذا هذا البناء الضخم يتناثر وينهار، واذا هذا الاسم الرنان يتوارى من التاريخ، واذا هذا التاج الرفيع يتدحرج الى التراب.

ولم يكن فى وسع المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها، عندما طالعهم هذا النبأ المروع أن يضبطوا أنفسهم، ويلزموها أن تناقش الامر مناقشة المتأمل فى حقائق التاريخ. لم يكن فى وسعهم أن يذكروا، وقد فجعهم انهيار الخلافة، أن هذه الخلافة منذ قرون لم تزد عن أن تكون شبحا، وأن خلافة بنى عثمان تركت بلاد المسلمين خرابا، وطاردت لغة القرآن، وحجبت النور على الازهر، وأقامت حكم

الظلم الاحمق المأفون، وأن العرب فى ظل هذه الخلافة ذاتها حرموا من كل ميدانه من ميادين الشرف، فلم يسمح لهم بأن يرقوا الى منصب ذى خطر، ولا الى قيادة ذات قيمة، ولا الى عمل ذى شأن.

فقد كان المسلمون محكومين، مبعثرين، فقراء، فلم يبق لهم الا أن يؤنسهم اسم الخلافة وذكرياتها وأن تكون لهم دولة مستقلة تدين بدينهم، ومن ورائها تاريخ طويل من الانتصارات على أوروبا .. فاذا تنكرت لهم هذه الدولة، ولم تقنع بأن خلعت طيلسان الخلافة، بل داسته بالاقدام، ومرغته فى الاوحال، فتلك هى الفجيعة التى يعز معها العزاء.

ولم يجد العرب والمسلمون، من ينظم لهم من دموعهم قصيدة تروى أحزانهم وتصفها سوى شاعرهم المجيد أحمد شوقى، فراح يبكى لهم، ويفرج عن أوجاعهم، فقال يرثى الخلافة التى وئدت على يد بطل تركيا المظفر الذى سموه «خالد الترك»:

عادت أغانى العرس رجع نواحِ

ونعيت بين معالم الافراحِ

كفنت فى ليل الزفاف بثوبه

ودفنت عند تبلج الاصباح

شيعت من هلع بعبرة ضاحك

فى كل ناحية وسكرة صاح

ضجت عليك مآذن ومنابر

وبكت عليك ممالك ونواح

الهند والهة ومصر حزينة

تبكى عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس

أمحا من الارض الخلافة ماح

وأتت لك الجمع الجلائل مأتما

فقعدن فيه مقاعد الانواح

وبقدر ما بكى المسلمون على الخلافة، فرح الغرب باختفاء هذا الاسم الذى اقترن آخر الامر بتركيا التى وقفت قرونا طويلة سدا منيعا فى وجه الزحف الاستعمارى الى الشرق الادنى، والتى كانت خليقة بأن تسدى الى المسلمين، والشرق كله، يدا لا تنسى لو أنها أيدت سلطانها العسكرى، بسلطان الحضارات العربية التى ازدهرت فى دمشق وبغداد والقاهرة والاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا..

ولكن سوء الحظ أبى الا أن يجعل من خلافة بنى عثمان الطبعة الاخيرة من كتاب حكم جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك. ولا بد أن بريطانيا فكرت فى أن تستغل انطواء علم الخلافة العثمانية، ولكن الذى لا شك فيه أنها أدركت سريعا أن مصلحتها تقضى عليها لا بأن تتبنى خليفة أجيرا، تحركه أصابعها، بل بأن تقضى على فكرة

الخلافة كلية. ذلك لان تجربة بريطانيا مع (الخلافة) بعد الحرب العالمية الاولى كانت تجربة أقل ما توصف به بأنها غير سعيدة..

ففى خلال الحرب العالمية الاولى وعدت بريطانيا المسلمين والهنود بأنها اذا ما انتصرت على المانيا وحلفائها، فلن تمس أملاك الخليفة العثمانى فى البلاد العربية ولكنه كان وعدا كاذبا ككل وعود السياسة أذ لم تتردد عندما تم النصر لها فى أن توزع هذه الاملاك بينها وبين فرنسا، وكانت روسيا موعودة بجزء من هذه الاملاك ذاتها. ولذلك ما كادت تذاع أنباء معاهدة (سايكس- بيكو) التى عقدتها بريطانيا مع فرنسا سرا ومعارك الحرب دائرة، كما لم تكد تذاع أنباء المعاهدات التى أبرمت فى فرساى بين الحلفاء المنتصرين وأعدائهم المهزومين، حتى أحس المسلمون والهنود بما يشبه ألم الملدوغ، فصرخوا فى وجه بريطانيا صرخة مدوية، فكانت حركة (الخلافة) فى الهند بزعامة محمد على وشوكت على، وهى بداية الحركة الوطنية القوية في الهند بأسرها، فقد جاءت الحركة (الغاندية) بعدها، وقد أوحت الفطرة السياسية السليمة الى المهاتما غاندى بوجوب تبنى حركة الخلافة الاسلامية ومناصريها، فلما فعل تمت أولا الوحدة القومية بين المسلمين والهندوكيين، ثم كسبت الحركة الاستقلالية عنصرا هاما، فقد كان المسلمون وزعماؤهم من أشد العناصر الهندية عزما على القتال، وصبرا على متاعبه.

هذا كله الى جانب ما طرأ على خريطة الشرق العربى من تغير عظيم بعد الحرب العالمية الاولى، فقد كان البيت الهاشمى قد أقصى من الحجاز، وحل محلة عبد العزيز ال سعود، فبات مسيطرا على شبه الجزيرة العربية كلها تقريبا اذ جمع حكمه نجد والحجاز معا. وانتقلت الاسرة الهاشمية الى العراق والاردن.

فقامت مدرستان سياسيتان تتنازعان السياسة البريطانية فى الشرق العربى: مدرسة الحكومة البريطانية وأقلام مخابراتها فى الهند وكانت تدعو الى تأييد النجم الجديد عبد العزيز آل سعود ومدرسة أقلام المخابرات فى القاهرة وكانت ترجع كفة فيصل بن الشريف حسين الذى أصبح ملك العراق..

لذلك كله لم يكن من السهل على بريطانيا أن تصل فى موضوع الخليفة الاسلامى الى حل سهل مريح، إذ كيف يتأتى لها أن تسند الخلافة الى أحد الملوك الذين يجرون فى فلكها دون أن تغضب الاخر، ودون أن تغضب المهراجات الهنود المسلمين الاغنياء مثال حيدر أباد ركن. فقد كان عبد العزيز آل سعود أولى بالخلافة من جهة لانه أصبح سيد الجزيرة العربية وفيها الاماكن المقدسة، وكان فيصل أولى بها من جهة أخرى لأنة على الزعم الشائع سليل بنى هاشم وحفيد الرسول. وكان المهراجات الهنود أولى من وجهة النظر البريطانية لانهم أتباعها الاوفياء، وأغنى هؤلاء جميعا.

وكان الملك فؤاد أحق من أولئك قاطبة لانه ملك مصر، زعيمة البلاد العربية، وموطن الازهر، وموئل الثقافة الاسلامية.

لذلك لم تنشط بريطانيا في استغلال منصب الخلافة الشاغر نشاطها المألوف بل استقبلت هذا التطور السياسي في حياة المسلمين بحذر واحتياط، وكان أسعد الحلول الذي فوضته الظروف أن يقفل باب الحديث في الخلافة، فاذا كان الملك فؤاد قد عني نفسه بأن يكون هو خليفة المسلمين فانه بلا شك لم يجد مع الانجليز ما يؤيده في تحقيق هذه الامنية، ولكنها لم ترده من مسعاه حتى تتبين رد فعل هذا المسعى الشخصي عند المسلمين.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ الاحمدي الظواهري، شيخ الجامع الازهر في عهد الملك فؤاد ومندوب الملك في مؤتمر الخلافة الذي عقد في مصر سنة ١٩٢٦ (١) «لم يكن التمهيد لانعقاد مؤتمر الخلافة الذي بالقاهرة يحضره مندوبون من جميع أمم الاسلام أمرًا بسيطاً هينا كما ظن علماء الازهر في بادئ الامر فقد امتد زمن الدعوة اليه من عام سقوط الخلافة في استانبول الى عام ١٩٢٦ عندما عقد المؤتمر فعلا في القاهرة.

أما سبب التأخير فيرجع الى أنه قد دخلت نفوس بعض كبار المسلمين وأمرائهم في الامم الاسلامية الاخرى شكوك من جهة مصر، فقد ظنوا علماء الازهر أنما يقصدون من مؤتمر القاهرة الذي

(١) كتاب الازهر والسياسة، ص٢١ وما بعده.

يدعون اليه، أمرا آخر له باطن غير ظاهره، وانهم انما يثيرون مسألة حماية الخلافة لا خوفا على الخلافة واشفاقا على كلمة الاسلام كما يدعون، بل لغرض آخر هو نقل الخلافة من شاطيء البوسفور الى شاطيء النيل وضم أريكة الخلافة الى أريكة الملك فى عابدين وفى رأس التين.

ثم قال:

«من أجل ذلك كانت اجابات دول اسلامية على دعوة علماء الازهر لعقد مؤتمر فى القاهرة اجابات فاترة وكان معظمها استفسارا عن مرامى المؤتمر وغاياته ومن الذى يراد تنصيبه خليفة بدلا من الخليفة المعزول، بل أن شوكت على وهو أحد زعماء مسلمى الهند كتب يقول: إن مبايعته لعبد المجيد المخلوع لا تزال قائمة وانه لا يزال يعده خليفة المسلمين».

ويقول الشيخ الاحمدى الظواهرى:

«وعندما رأيت بوادر الفشل فى عقد المؤتمر طلبت مقابلة الملك فؤاد فصارحته كما تعودت أن أصارحه دائما وأخبرته بما يتقوله رجال الامم الاخرى فقال الملك: اننى رجل مسلم وأحب رفعة الاسلام وجمع كلمة المسلمين ولا أحب أن يتفرقوا ولهذا شجعت علماء الازهر على فكرة اقامة مؤتمر فى القاهرة يبحث فى مسألة الخلافة من جميع نواحيها ولم أقصد أن أكون أنا الخليفة بالذات

كما ظن بعضهم». ويشير كتاب الازهر والسياسة الى ثلاث أوراق وجدت فيما خلفه الشيخ الظواهرى، فيها برقية من الملك حسين الهاشمى (والد فيصل وعبد الله وجد الملك حسين) يقول فيها أنه هو الخليفة لانه مستوف شرائطها ولا يحكم أحدا فى هذا الشأن، وبرقية من بعض القضاة الشرعيين المصريين يقولون ان موضوع الخلافة موضوع خطير لا يجوز أن يبت فيه قطر وحده، وثالثة من تركستانى يدعى جار الله أراد أن يحضر مؤتمر الخلافة فمنعته وزارة الداخلية لاعتقادها بأنه شيوعى مدسوس على المؤتمر ليفسده، وبرقية القضاة الشرعيين دالة على أن الملك فؤاد، أحس أن محاولته محتومة الاخفاق، ولذلك وجد أن خير السبل للخروج من هذا المأزق الذى أقحم نفسه فيه هو أن يفض المؤتمر وفى هذا المعنى يقول الشيخ الظواهرى:

«وحينئذ خطر لى أن أسلم طريقة لحفظ كلمة المسلمين من التفرق ولمقام مصر أن يصان وابقاء على الخلافة وحماية لها هو أن يسعى لفض هذا المؤتمر قبل أن يتخذ قرارا معينا قد يزيد النفرة بين المسلمين».

وقد قبل الاقتراح وانفض المؤتمر.

***

فى هذا الجو المشحون بالوساوس والهواجس والمطامع

والدسائس، خرج كتاب الشيخ على عبد الرازق «الاسلام وأصول الحكم».

ولا يستطيع مورخ منصف أن يقول إنه مقطوع الصلة بالاحداث السياسية التى وقعت فى الحقبة التى ظهر فيها عقب انهيار الخلافة التركية، فهو مع كونه بحثا علميا دقيقا اجتمع له من رصانة الاسلوب، وهدوء نفس كاتبه، وبساطة عبارته، وخلوها من الحشو، ومع تحليه بالاستقامة فى الوصول الى الهدف بغير تردد أو تذبذب، أو خوف، فهو عمل سياسى فى الدرجة الاولى، به من أسلوب الاحرار الدستوريين، أو حزب الامة صفتان: الاولى مخاشنة الملك والتوثب عليه، والثانية أخذ السياسة البريطانية وغاياتها فى الاعتبار.

ولا جدال فى أن صدور كتاب الاسلام وأصول الحكم - أيا كانت غاية صاحبه منه - كان خطورة فسيحة نحو بعث التفكير الاسلامى العلمى، بل انها خطوة من خطوات التفكير الاسلامى بعامة، فقد كان هذا التفكير قد أجدب، فلم يعد يطلع على الناس مؤلف يحدثهم فى أصل من الاصول السياسية للاسلام، فمنذ كتاب «الاحكام السلطانية» للماوردى ومقدمة ابن خلدون، لم تجر أقلام علماء المسلمين قرونا عديدة ببحث سياسى يتصل بأحكام القرآن والسنة، وبما يجب على المسلمين أن يواجهوا به تطورات الحكم والاقتصاد والاجتماع فى الدنيا، فى أعقاب حروب دولية واسعة النطاق، وتغيرات

بدلت وجه الدنيا، وأقامت دولا، وأزاحت دولا، وأطلقت عشرات من الافكار الحبيسة من عقالها.

والامور التى انتهى اليها الشيخ على عبد الرازق فى كتابه، قليلة وبسيطة، مما جعل لكتابه أثرا أعمق. فلو أنه ملأ كتابه بعشرات من الافكار الرئيسية والفرعية، ثم شرق وغرب، وأجمل وفصل، ولف ودار، لاختفت أفكاره الكبرى، ولغمض على الناس مذهبه. والحق أن هذا شأن كل الكتب التى حركت الافكار وأثارت الناس.

والفكرة الرئيسية فى الكتاب هى أن الخلافة ليست ركنا من الدين، ولا حكما من أحكامه، وانما هى أسلوب من أساليب ادارة الدولة، اهتدى اليه المسلمون عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، دون وجود نص ملزم فى القرآن، ولا أثر فى السنة، وأن الخلافة فيما عدا عهد الخلفاء الثلاثة الاوائل، أبو بكر وعمر وعثمان، لم يتم رضاء المسلمين بمن قام بأمرها، ثم لم تلبث حتى أصبحت ملكا عضوضا، سنده ككل ملك آخر القوة الظاهرة السافرة، أو القوة المستترة التى يحس بها المحكومون، وإن لم يروها رأى العين.

وأن المسلمين كغيرهم من الامم فى حاجة الى حكومة وحاكم، اذ لا يصلح أمر الناس بغير ذلك، والا سادتهم الفوضى، ولكن ليس حتما أن تكون حكومتهم هى الخلافة، فشكل الدولة ونظام الحكم فيها، مرده ظروف الناس، وملابسات حياتهم، وهى ظروف متغيرة لا

تبث على حال، وتقوم هذه الفكرة الاساسية على فكرة أكثر منها شمولا وهى أن «محمداً» صلى الله عليه وسلم ما كان الا رسولا لدعوة دينية خالصة لا تشوبها نزعة ملك، ولا عودة لدولة، وانه لم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم ملك ولا حكومة، وأنه صلى الله عليه وسلم، لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى نفهمه سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها. ما كان الا رسولا كاخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة، ولا داعيا الى ملك (١). وعزز هذه الفتوى بقوله:

«ولا يريبنك هذا الذى ترى أحيانا فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، فيبدو لك كأنه عمل حكومى، ومظهر للملك وللدولة، فانك اذا تأملت لم تجده كذلك، بل هو لم يكن الا وسيلة من الوسائل التى كان صلى الله عليه وسلم يلجأ اليها تثبيتا للدين وتأييدا للدعوة».

وزاد هذه الفكرة تعميقا بأن قال:

«كانت وحدة العرب وحدة اسلامية لا سياسية وكانت زعامة الرسول فيهم زعامة دينية لا مدنية، وكان خضوعهم له خضوع عقيدة وايمان لا خضوع حكومة وسلطان، وكان اجتماعهم حوله اجتماعا خالصا لله تعالى...

الى أن قال:

«فاذا ما لحق عليه السلام بالملأ الاعلى لم يكن لاحد أن يقوم من

---

(١) الاسلام وأصول الحكم ص ٧٩

بعده ذلك المقام الدينى، لانه كان عليه السلام «خاتم النبيين»، وماكانت رسالة الله لترث عن الرسول ولا لتؤخذ عنه عطاء ولا توكيلا».

والذين نهضوا للرد على الشيخ علي عبد الرازق، لم يستطع واحد منهم أن ينكر أن القرآن خلا من نص على شكل الحكومة الاسلامية، وأركانها، وكيف يختار الحاكم الذى يجب على المسلمين أن يدينوا له بالطاعة، ومن أى طبقة يختار، ولاى مدة يبقى فى منصبه، وكيف يحاسب، وأى عقاب ينزل به اذا خرج على الشرع، أو عرض مصالح الامة للهلاك أو البوار، وأن سكوت القرآن عن هذا الجانب الحيوى الاساسى فى حياة البشر بعامة، وحياة المسلمين بخاصة، أمر يستوقف النظر، لان القرآن لم يدع جانبا من جوانب حياة المسلم المدنية أو الشخصية الا وأنزل فيها أحكاما تناولت الاصول والفروع فى بعض الاحايين، بالبيع والشراء، والزواج والطلاق، والدين واثبات الحقوق فيه قرآن كثير، أفلا يكون سكوت القرآن عن الحكم ومناهجه فضيلة من فضائل القرآن، ومزية من مزايا تشريعه السياسى، لان ما يصلح للناس من أسلوب الحكم فى زمان قد لا يصلح لهم هم انفسهم فى زمان آخر، ولان خضوع المسلمين كافة لحاكم واحد، فى المشارق والمغارب، والشمال والجنوب، أمر قد انحسم، بل أن «كتاب الاسلام وأصول الحكم» قد فتحها على المصاريع لتدرس

ولتمحص، وليتبارى الفقهاء والكتاب فى ابداء الرأى فيها على ضوء نصوص القرآن والسنة النبوية، وما جاءت به الايام من تطورات كثيرة وتجارب متوالية تلغى بعضها بعضا، ولا يزال البشر فى بحث دائب عن الحكومة الصالحة.

والحق أن الذين برزوا لمناقشة الشيخ على عبد الرازق لم يكونوا فى مستواه قوة حجة، وتجردا من الافكار الموروثة، فهم مثلا ساقوا للرد عليه الآيات التى تدل على أن القرآن والسنة احتويا على نصوص تتناول الحكم، والحق كذلك أنها نصوص غير منكورة ففى القرآن الآيتان الكريمتان. «وأمرهم شورى بينهم»، «وشاورهم فى الامر» وفيه الآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم».

ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم «من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»، «اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم»، «لا يحل لثلاثة أن يكونوا فى فلاة من الارض الا أمروا أحدهم» «وأن أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا أمام عادل» ولعل الشيخ على عبد الرازق أراد أن يقول إن هذه النصوص تستوجب حينا أن يكون للجماعة قائد، وتدعوا الى العدل والشورى حينا آخر، بل قد تلزم باقامة الحاكم والتزام أوامره. هذا كله شىء وبيان صورة الحكم وأركانها، شىء آخر.

الأمـر يحتـاج – كمـا قلت – الى مـواصلة البـحث ولكن كـتـاب «الاسلام وأصول الحكم» انطوى على شقين أفزعا الناس، والملك.

أما الناس فى مـصـر وفى غيرها، على ما سلف القول فقد كان جرحهم الذى فتحه كمال أتاتورك باسقاطه خلافة بنى عثمان لا يزال يدمى، وكانوا فى أشد الحاجة الى من يلطف ألم هذا الجـرح فـجاء كتاب « الاسلام وأصول الحكم » سائلا كاويا يصب فى الجرح صباً.

لا يخـفف من الم الجـرح أن يكون غـاية الطبـيب المـعـالج من مضـاعفة شعوره بالالم، الاسـراع بشـفائه. وقد يكون شفيع الشيخ على عبد الرازق انه أراد أن ينتهز فـرصة سقوط الخلافة، والم الناس لهـذا الحـدث، ليطـهر الجـرح مـمـا يكون قـد انطوى عليـه من صـديد قديم، لكيلا يقفل على خبث. لذلك كان طبيعيا أن تثور ثائرة الناس عليه، وأن يفكر بعضـهم فى التفريق بينه وبين زوجته، بحسبانه مرتدا عن الاسلام، لولا أنه وقتذاك لم يكن قد تزوج بعد

أمـا ما أزعج الملك فؤاد، فـهو علمـه بأن هذا الكتـاب الذى يبـدو بحثا بريئا فى الاسلام، ليس الا عمـلا سياسيا يستـهدف النيل منه والوقـوف فى وجـه مطامـعـه فى الخـلافة، والحق أن كـتـاب «الاسـلام وأصول الحكم» كان الوثيقة المطبوعة الوحيدة التى صدرت من غير أقلام كتاب الحزب الوطنى أمثال الغاياتى وأحمد حلمى، وحوت طعنا صريحا فى الملكية والملوك.

فقد قال: (١)

«ولولا أننا نرتكب شططا فى القول لعرضنا على القارىء سلسلة الخلافة الى وقتنا هذا ليرى على كل حلقة من حلقاتها طابع القهر والغلبة، وليتبين أن ذلك الذى يسمى عرشا لا يرتفع الا على رءوس البشر، ولا يستقر الا فوق أعناقهم، وان ذلك الذى يسمى تاجا لا حياة له الا بما يغتال من قوتهم، ولا عظمة له ولا كرامة الا بما يسلب من عظتهم وكرامتهم، كالليل ان طال غال الصبح بالقصر، وأن بريقه إنما هو من بريق السيوف».

ثم قال:

«وتلك جناية الملوك واستبدادهم بالمسلمين. أضلوهم عن الهدى، وعموا عليهم وجه الحق، وحجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين، وباسم الدين أيضا استبدوا بهم وأذلوهم، وحرموا عليهم النظر فى السياسة، وباسم الدين خدعوهم وضيقوا على عقولهم. فصاروا لا يرون لهم وراء ذلك الدين مرحبا.

لذلك لم يكن ثمة بد من أن يريح الملك فؤاد اعصابه بعمل يؤدب به الشيخ على عبد الرازق، فدعيت هيئة كبار العلماء للانعقاد ونظرت فى الكتاب، ورأت أن تنسب اليه سبع تهم قوامها أنه كفر بدين الله ومرق من أمره، ثم دعى هو للحضور أمامها، ولما مثل بين يديها،

---

(١) الاسلام وأصول الحكم ص ٢٦

صاح فيه الشيخ الاكبر: أقعد هناك. فجلس عند طرف المنضدة التى اجتمع حولها الشيوخ الاجلاء ولم يقبل الشيخ على عبد الرازق أن تجرى المحاكمة قبل أن ينبه هيئة كبار العلماء الى أنه لا يعتبر نفسه حاضرا أمام هيئة تأديبية وأنها لها حق محاكمته، فرفضت المحكمة الدفع الفرعى، ثم أصدرت حكمها فى ٢٥ من اغسطس سنة ١٩٢٥ بتجريده من شهادة العالمية لانه أفتى بأمور تخالف الدين والقرآن الكريم والسنة النبوية واجماع الائمة.

فى اليوم التالى نشرت جريدة السياسة - صحيفة الاحرار الدستوريين - بيانا للشيخ على عبد الرازق أعلن فيه فرحه بأن هيئة كبار العلماء أخرجته من زمرة العلماء، كما أعلن أنه سيخلع من ذلك اليوم ثوب الازهريين ويرتدى الزى الاوربى.

ولكن أزمة كتاب «الاسلام وأصول الحكم» لم تقف عند هذا الحد فقد كان الاستاذ عبد العزيز فهمى وزير العدل آنذاك من الاحرار الدستوريين فى وزارة ائتلافية تضم الاحرار الدستوريين والاتحاديين، فلما أحيل اليه حكم هيئة كبار العلماء الذى قضى بتجريد الشيخ على عبد الرازق من شهادة العالمية، وذلك لانه كان من قضاة المحاكم الشرعية التابعة لوزارة العدل، احرجه ذلك فعلى عبد الرازق من أساطين عائلة عبد الرازق، وهى من دعائم حزب الاحرار الدستوريين وبدلا من أن يقف موقفا يستند الى مبدأ، وهو

بطلان حكم هيئة كبار العلماء لانها ليست هيئة تأديبية للقضاة الشرعيين، وانها لا تملك تجريد العلماء من الشهادات التى حصلوا عليها، اراد أن يؤجل الازمة فأحال الموضوع الى لجنة قضايا الحكومة لتفتى فى هذه الامور القانونية كلها، ولم يعجب بطبيعة الحال الملك فؤاد هذا التلكؤ فعزل عبد العزيز فهمى من وزارة العدل، وكان ذلك العزل سابقة دستورية خطيرة، ومع ذلك فإن الوزيرين الدستوريين الآخرين تلكآ فى تقديم استقالتيهما من الوزارة لولا ضغط الحزب عليهما، فأذعنا لرأيه بعد لأى.

والطريف الذى يجب أن يذكر هنا، أن هذه التطورات السياسية والوزارية كانت تجرى ورئيس الوزارة أحمد زيور باشا، خارج مصر، يصطاف، وتبلغه الانباء وعمليات الفصل والوصل تجرى فى وزارته بغير علمه، فلا يزعج هذا كله خاطره، ويبقى فى أوروبا، ناعم البال، سعيدا بالمصيف.

يذكر الناس دائما الشيخ على عبد الرزاق بكتابه «الاسلام وأصول الحكم» ولا يذكرون له اثرا علميا عظيما، يعلو عليه فى رأيى، ويدل على علم (على عبد الرزاق)، واكتمال صفات العالم فيه، وحسن استعداده لتأصيل الافكار التى يتصدى لبحثها، والتعبير عنها فى عبارة موجزة، خالية من الحشو، ومن التحلية الرخيصة، تتألق وضوحا، الاثر الذى أعنيه هو كتاب صغير فى مائة وثلاث وعشرين صفحة، صدر فى رمضان سنة ١٣٣٠ الموافق أغسطس سنة ١٩١٢

ولهذا الكتاب عنوان، عنوان كبير يحمله الغلاف هو «أمالى على عبد الرازق فى علم البيان وتاريخه» وعنوان بالحرف الصغير فوق مقدمته هو «تاريخ علم البيان».

وهو فى سبعة أبواب، بعد مقدمة، تناول فى الباب الاول مجمل المذاهب فى أعجاز القرآن ونشأة علم البلاغة، وتطوره على أيدى الجاحظ والجرجانى والزمخشرى والسكاكى والقزوينى والسيوطى ثم عرف فى الباب الثانى بعلمى المعانى والبيان ثم تكلم فى الابواب التالية عن المجاز والاستعارة بأنواعها والكتابة والفرق بينها وبين المجاز.

والمطالع لهذا الكتاب، يحس بمدى الجهد الذى بذل فى جميع هذه الاشتات العديدة فى هذه الصفحات القليلة، وهو جهد لا يضطلع به ولا ينجح فيه الا من أحاط بهذا الموضوع الفسيح المترامى، احاطة المتعمق، المدرك لدقائقه، ولا يفرغ الانسان من قراءة هذا الكتاب، أو الكتيب، حتى يحزن حزنا شديدا لان على عبد الرازق، لم يواصل بحثه فى تاريخ الادب العربى، ولم ينقطع له، ولأشباهه من البحوث المتصلة بالثقافة العربية والاسلامية، فان هذا الكتاب كان إرهاصا بينا بأن عالما جليلا فى علوم اللغة العربية وآدابها، سيولد، وأنه بعد قليل، سيأخذ مكانه الى جانب الصفوة المختارة من واضعى بناء علم البيان، ولكن لأمر ما، انصرف على عبد الرازق عن البحث العلمى، من سنة ١٩١٢، تاريخ طبع كتاب «الامالى» حتى

ظهور كتاب الاسلام واصول الحكم فى سنة ١٩٢٥ ولست أدرى ما الذى حال بينه وبين ظهور هذا الكتاب، للانتاج الادبى، وقد هدأت العاصفة من حول شخصه وكتابه، وتغيرت الظروف السياسية حتى استطاع أن يمنح لقب الباشوية، وأن يكون وزيرا، وأن يساهم فى الحياة العامة، مساهمة غيره من الوزراء، بلا أدنى قيد، ولا أهون عقبة.

ولا يملك مؤرخ حياة على عبد الرازق أمام هذا كله الا أن يقول إن الانسان لا يزال أغمض الظواهر التى تقع عليها العين فى هذا الكون المحيط بنا، وبغير هذا التسليم، لا يستطيع المؤرخ أن يفسر كيف يتحول عالم اجتمعت له وسائل العالم، وأدواته، وصفاته الى رجل من رجال السياسة، يفتى فى ميدانها، ويجرى فى حلبتها، دون أن يترك فيها أثر أن يحارب ويجاهد تحت لواء العلم.

وبعد، فالشيخ على عبد الرازق، صفحة فريدة فى تاريخ مصر الحديثة الادبى وتاريخها الاسلامى، فقد ولد سنة ١٨٨٨ وتعلم فى الازهر، ثم درس الاقتصاد والعلوم السياسية فى لندن سنة ١٩١٢ ثم اشتغل بالقضاء الشرعى حتى سنة ١٩٢٥ ثم أثار بكتابة ضجة لم يثرها كتاب، ثم توارى عن الانظار، ثم برز سياسيا كبيرا، ثم وزيرا يحمل لقب الباشا، وبقى فى عزلة، حتى اختاره الله لجواره فذكرته الاقلام، وعادت تتحدث عنه وعن كتبه.

رحمة الله واسعة.

الدكتور.. محجوب ثابت

فى الفترة ما بين سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٥، أى نحو ربع قرن من الزمان، كان محجوب ثابت معلما من معالم الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر، بعامة، وفى القاهرة بخاصة.

كانت الناس تقرأ له وتقرأ عنه فى الصحف، وتتابع نوادره فى المجلات، وتروى طرائفه وغرائبه فى الاندية ودور الاحزاب.

وكان يخطب فى المحافل، وعلى قوارع الطرق، وعلى أبواب دور الصحف، ويستوقف أصحابه ليحدثهم، ويستوقفه أصحابه، ومن يعرفون اسمه، ومن يعرفون رسمه، فيسألونه ويجيب: يجيب على أسئلة توجهوا بها اليه، وأسئلة لم يوجهوها، ولم تخطر لهم على بال، وهو لا يجيب على الاسئلة المطروحة، والاسئلة التى يتبرع هو باجاباتها، والاسئلة المتفرعة على هذه وتلك، بل يشقق الحديث، فينتقل من فكرة الى فكرة، ثم يغضب فجأة، ويلوح بعصاه الضخمة التى لا تفارق يده، ويهدد أعداء يذكرهم بالاسماء حينا، ويذكرهم بالصفات حينا آخر، ثم يهدأ، وتطيب نفسه، ويضحك، ويسعل، ثم يسير.

هذا هو محجوب ثابت، الطبيب، الذى كان صديق السياسيين والصحفيين والادباء والقراء، والعمال والشباب، والذى كان يتفجر حيوية، وبلاغة، وأدبا، وشعرا، ونقدا وهجوا، ونصحا وإرشادا، وتأييدا وتجديدا، والذى كان له فى كل حزب أصدقاء، وإن كان قد بدأ حياته من شباب الحزب الوطنى، وكفاح فى ظله، وساهم فى نشاطه السياسى والاجتماعى، وتأثر بأسلوبه فى العمل، وبنظرته الى الامور العامة..

كان مظهر محجوب ثابت، يميزه، كما ميزته خصائصه العصبية والنفسية.. فقد كانت له لحية تدور حول وجهه، وشارب كثيف نوعا يتصل بهذه الذقن، فيبدو بهما كواحد من علماء فرنسا، وكانت عصاه، ثم غليونه الذى يدخن منه، والذى يترك أثرا من صبغة التبغ على عثنونه أى لحيته تحت شفته السفلى، ثم ضخامة جسمه، واحدوداب ظهره، كل ذلك جعله شخصا لا تخطئه العين، ويختلف عن جميع الرجال الذين كانوا يظهرون على مسرح السياسة والادب، فى تلك الفترة من حياة مصر.

ولم يكن ذلك كله هو ما يميز محجوب ثابت، فقد كان له أصدقاء فى العالم العربى، فى مشرقه ومغربه، وكان يسافر الى سوريا ولبنان وفلسطين، فى وقت كان فيه أكثر الساسة المصريين لا يعرفون عن هذه البلاد الا أقل القليل.

ومع كل هذه المزايا الطريفة، فقد كان يستوقف نظر الناس وسمعهم، بأسلوبه فى الحياة، وفى الكلام، أما أسلوبه فى الحياة، فكان أشبه شىء بأسلوب الفنانين الذين لا يكفون عن الحركة والتنقل والذين يضيقون بالمواعيد وبالتقاليد وتقتلهم سأما الرتابة والنظام المعهود.

كان طبيبا له عيادة فى حى السيدة زينب، وكان عالما بفنه، وقادرا على التفوق على أنداده وزملائه، بذكائه المتقد، وقدرته الفائقة على المطالعة والتحصيل، ولطفه الذى ينفذ به الى قلوب مرضاه وذويهم، وشهرته التى تفتح له أبواب البيوت، تكسبه ثقة الصغار والكبار.

ولكن العمل فى العيادة، والصيدلية التى تتبعها، لم يكن ليقوى على رده عن اجتماع سياسى يشهده، أو حفلة انتخابية يؤيد فيها صديقا، أو يهاجم فيها خصما، أو ندوة فى دار من دور الصحافة، أو إملاء مقال لجريدة أو الاسترسال فى مكالمة تليفونية يشرح فيها ويعلق ويثور ويغضب، ويسترضى ويتلطف أما أسلوبه فى الكلام فكان خاصا به وحده، لا يشبهه فيه أحد من معاصريه، فهو يتكلم بالعربية الفصحى، ولو كان يتحدث الى ماسح أحذية، أو بائع صحف، أو حوذى، أو امرأة تعمل فى داره. وفصحاه ليست كفصحى غيره، فهو يقلقل القافات فى كلامه ويكثر منها، فمن لوزامه

قلنا، وقالوا، وقلت، وقدر، وتم، وجرف، وتمامة، وقيافة وهكذا.. ويختم هذا كله بعبارة لا تفارق، فهو لا يكف عن القول «يقينا يا ولدى! يا ولدى» وكان له صديق هو النقراشى يناديه «سى نقرش» والى جانب لازمة القاف، وفصحاه الغريبة، واستشهاده بالأبيات من الشعر ذى الرنين الضخم، كانت لازمته الفكرية، هى أبرز سماته الشخصية، وأعنى بها هيامه بالحديث عن السودان ووحدته مع مصر، ووحدة مصر معه، ووحدتهما معا المكونة لوادى النيل، ولزومه لمصر، ومناقب أهله، وفضلهم، وشجاعتهم، وهو كما قلنا، يجب التنقل فى كل شىء، وفى الحديث أكثر من أى شىء آخر، فهو يصل الفكرة بالفكرة، والمعنى بالمعنى، ولا يبعد أن يبدأ بالحديث عن الصحة أو الجو، ليتحدث عن الفلك، والطب والساسة والاقتصاد والاحصاء، وحقوق المرأة، ونقابات العمال، والانتخابات فى بريطانيا، وشعر ذى الرمة، ولكن يمكنك أن تثق، أنه مهما شرق أو غرب، أطال أو أوجز، فان السودان البداية خاتمة المطاف، إن لم تكن السودان فى كل فقرة من فقرات الحديث، وكل لبنة من لبناته.

وقد كملت شخصية محجوب ثابت، بجامعة من الاصدقاء، أحبته أعظم الحب، وأحبت صفاته وخصائصه، وقافاته وصيحاته، وتلويحه بالعصا، وإرعاده وابراقه ثم هدوءه وانبساطه، ولكنها استغلت طيبته، أسوأ استغلال، فلم تكن تكف عن مداعبته، والاسراف فى الاثقال

عليه، والنيل منه، حتى بات فكاهة تروى، وقصصا تحكى، فأضاع ذلك عليه وعلى وطنه الكثير من الخير الذى كان يمكن أن يعود عليه من عمله، ونشاطه، ومثابرته واطلاعاته، وتنوع خبراته، واتساع أفقه.

فان الناس لم يستطيعوا- فى أغلب الاحوال - أن يأخذوه مأخذ الجد، فما كان يستهل عليهم فى مجلس، أو يطلع على منبر، حتى ترتسم الابتسامات على شفاههم، وما يكاد يبدأ فى الحديث، حتى يضجوا بالضحك، على ما يقوله، ولو كان جدا خالصا.

وقد عظمت البلية لأن الذين إتخذوا هذه اللعبة القاسية، وسيلة للترفية والتشويه، هم فى قمة المجتمع فقد كان منهم أحمد شوقى أمير الشعراء وحافظ ابراهيم شاعر النيل ومحمود فهمى النقراشى الذى كان فى آخر حياته رئيسا للوزراء، ثم الشيخ عبد العزيز البشرى، الكاتب الأديب، وسليمان فوزى رئيس تحرير جريدة الكشكول، الجريدة السياسية النقدية، التى كانت من جرائد الاحرار الدستوريين.

وهكذا ضاع على مصر، جهد رجل صادق، مخلص، نافع، غنى بالكفايات، واسع العلم بحاجات بلاده، أسدى لها فى شبابه ومطالع رجولته، أيادى جمة، وخاض فى سبيلها معارك هامة، وارتاد من أجلها، مجاهل لم تطأها قدم: كان من أوائل الذين عملوا فى الميادين الاجتماعية مع الحزب الوطنى، وقدم البحوث والتقارير

والاحصائيات لمؤتمر عقد فى بروكسل سنة ١٩١٠، فى حين كان من أوائل المصريين الذين درسوا فى كلية الطب.

ثم اشتغل بنقابات العمال، وتأسيسها، وتوسيع نطاقها، وتأصيل نشاطها، ثم تحدث فى شئون الجيش والطيران، وطالب بالغاء البدلية وبجعل الخدمة العسكرية اجبارية، فى أحاديث مستفيضة، أما السودان الذى اعتبر مداعبوه هيامه به، وحبه له، نقطة الضعف فى شخصيته، فقد كان يوالى الصحف بكل ما هو خطير بصدد مشروعات الرى البريطانية فى هذا الوطن العربى الذى تربطه بمصر، وشائج لا تفصم وعلاقات لا تقطع.

ولا شك عندى فى أن أعظم ما جنى على محجوب ثابت، فألقى به فى الظل، أثناء حياته، فى أخريات عمره، والذى أدى الى جحود فضله بعد مماته، هو طيبته، وسذاجته، فلو كان أحد لسانا، أو عظم أذى، أو أحرص على المال، أو أقدر على التزلف وارضاء ذوى المناصب والجاه، لا ستطاع أن يصل الى القمة، ولا التمس الناس عطفه ورضاه.

وقد سجل لنا الادب المصرى شعرا ونثرا صورة محجوب ثابت عند كبار معاصريه، فأصبحنا بفضلها قادرين أن نعرف بالضبط، كيف كانوا ينظرون اليه، نظرة هى خليط بين التقدير والسخرية الخفيفة المتسمة بالود والعطف، قال الشيخ عبد العزيز البشرى فى

احدى مراياه، أى صوره العلمية التى كان يرسمها لمعاصريه:

«لا شك فى أن الدكتور محجوب ثابت، يعد بحق، فى ميراثنا القومى، ولو- لا أذن الله - جرى عليه القدر لكان لا بد للأمة من «دكتور محجوب ثابت» بأى طريقة من الطرق، هو فى ميراثنا القومى لايقل عن آثار سقارة، وجامع السلطان حسن، ومقابر الخلفاء، ولقد أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الاهلية كحفلة المحمل، ووفاء النيل، وركبة الرؤية وشم النسيم».

ثم تحدث عن تعدد همومه، وتنوع آثاره فقال:

«اذا كان الكلام فى النيل، وعن خزان مكوار (خزان سنار) تولى الدكتور الكلام وملكه على جمهرة المهندسين، واذا كانت الثورة، تصدر الدكتور لجنة الوفد المركزية، وكلما انتشرت فى البلد مظاهرة، كان ناظورتها (أى سيد القوم المنظور اليه)، وكلما ساروا بضحية حرية، كان الدكتور أول المشيعين، فاذا كان اجتماع فى الازهر كان الدكتور فارسه المعلم، وعذيقه المرحب، فاذا تعانق الهلال والصليب، استأثر الدكتور من عناق الأب سرجيوس بأكبر نصيب، فاذا وجد دهماء المصريين «رعاعهم» على الارمن، وهم بعضهم بايقاع الاذى بهم طاف الدكتور بعربته و«مكسيوينه» (١) على دورهم فنقلهم وعيالهم ومتاعهم وأثاث بيوتهم الى مأمنهم.. واذا

---

(١) حصان هذه العربة.

كان جمع الاموال للوفد أغلق الدكتور عيادته «بالضبة» وهاجر الى قنا فيلبث الاشهر الطوال يجمع ما تحتاج اليه القضية من حليل الاموال».

ثم قال: وفى الحق أن الدكتور يرى نفسه مسئولا عن كل ما فى البلد من هابط وصاعد، وقائم وقاعد، وغاد ورائح، وسائح وبارح، ودارج على متن الغبراء، وسابح فى جوف الماء، وطائر فى جو السماء».

ثم وصفه فقال:

«وفيه ذكاء حاد يديم القراءة والنظر فى الكتب، كأنه يحفظ بظهر الغيب كل ما يقرأ، تعرف هذا من عمله الواسع الذى يكاد يستغرق كل ما فى الدنيا وكل أسبابها الا أن عمله مع الاسف يختلط بعضه ببعض حتى يتخيل اليك أن رأسه «كتبخانة»، «مدشوتة» ولو قد ملكت أمره، وكانت لى بسطة فى المال والسلطان، لدعوات بمستشرق ألمانى فنى، لينظم هذه المكتبة العظيمة فيضم كل شكل مع شكله».

ثم ختم هذا كله بقوله:

«إذا وعدته ليتناول الغداء معك أقبل عليك الساعة الخامسة بعد الظهر حتما فى غير ورع ولا اعتذار، ولقد دعاه صديق لى وله لتناول الافطار فى رمضان ولبثنا ننتظره برهة فلما يئسنا منه، أفطرنا، وفى نحو الساعة الحادية عشرة، أقبل الدكتور مشمرا للفطور، وما كان

أشد دهشة «يقينا» اذ علم أننا أفطرنا من أربع ساعات، فانطلق يزمجر ويزوم ويعتب ويلوم».

أما الصور الشعرية فقد كتبها صديقه أمير الشعراء، أحمد شوقي، فوصف سيارة الدكتور محجوب ثابت التي أستبدلها بعربة وحصان، وصفه أصدقاؤه فقال انه حيوان هزيل تعس تطل عروقه من خلف جلده. ولما كان محافظ مدينة «كورك» الآرلندية أضرب عن الطعام ٧٦ يوما حتى مات احتجاجا على فظائع الجيش البريطاني، فقد أطلقوا على حصان الدكتور محجوب ثابت أسم «مكسويني» لجامع الجوع والهزال بين الحصانين:

قال شوقي:

لكم في الحي سيارة حديث الجار والجارة

«أوفر لاند» ينبيك بها القنصل «طمارة» (١)

اذا حركها مالت على الجنبين منهارة

وقد تحزن أحيانا وتمشي وحدها تارة

***

أدنيا الخيل يا مكسى (٢) كدنيا الناس غدارة

لقد بدلك الدهر من الاقبال أدباره

فصبرا يا فتى الخيل فنفس الحر صباره

---

(١) الشيخ حلمي طمارة كان صديق شوقي ومحجوب ثابت وكان أماما بالمفوضية المصرية في وشنطن.

(٢) أختصار مكسويني.

ثم وصف شوقى براغيث الدكتور محجوب ثابت فى قصيدة أخرى فقال:

براغيث محجوب لم انسها ولم أنس ما طعمت من دمى

تشق خراطيمها جوربى وتنقذ فى اللحم والاعظم

ووصفه صديقه حافظ ابراهيم فقال:

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها

قصف المدافع فى أفق البساتين(١)

من كل قاف كأن الله صورها

من مارج النار، تصوير الشياطين

قد خصه الله بالقافات يعلكها

واختص سبحانه بالكاف والنون

ويحدثنا العقاد فى كتابه عن سعد زغلول، عن واحدة من هذه الدعايات، التى كان يشترك فيها أكبر رجال المجتمع وقتذاك.

وفى هذه المرة، كان سعد زغلول زعيم الامة هو أحد أفراد الجماعة المداعية، قال العقاد:

«جاء يوما الدكتور نجيب اسكندر من القاهرة - وكان بطريرك الاقباط قد توفى، قبل ذلك بأسابيع فالتف به الضيوف وقالوا له: اسمع يا دكتور انك لم تحضر الى مسجد وصيف، حيث كان سعد

---

(١) بساتين برطالة هى احدى فتح الله باشا بركات بن أخت سعد زغلول وكان الاخير يلتمس فيها خلال الصيف الراحة.

معتكفا فى مرضه الذى سبق وفاته - للسؤال عن الباشا، ولكنك حضرت لدعوة الدكتور محجوب الى مرافقه الوفد المسافر الى الحبشة لاستفتاء أهلها فى اختيار البطريرك الجديد.

«ونزل سعد بعد ساعة فاذا بالدكتور نجيب اسكندر يمثل أحسن تمثيل. قال: يا باشا إنى قادم لاستشارة دولتكم فى أمر يتعلق بالدكتور محجوب

فاشرأب الدكتور محجوب وهمس متثاقلا: ما هو يا سيدى؟

فأجاب الدكتور نجيب: السفر الى الحبشة.

قال الدكتور محجوب، وهل فرغنا يا سيدى من السودان حتى نشغل أنفسنا بالحبشة؟

قال الدكتور نجيب إنما نسافر لسؤال الاحباش عن رأيهم فى اختيار البطريرك الجديد.

فرد عليه الدكتور محجوب متبرما: ولماذا لا تسافر أنت، وأنت بهذه المهمة أولى؟

فخطر لخبيث أن يستفز الدكتور الى الحرص على المهمة فقال:

- ومع ذلك يا باشا لا أظن الدكتور «محجوب» يصلح لهذه المهمة الخطيرة.

فالتفت اليه الدكتور غاضبا وقال: ماذا؟ ماذا تقول يا سيدى؟ لا أصلح لهذه المهمة؟ أتقول لا أصلح.. لماذا يا سيدى.. لماذا؟

فقال الخبيث: لأنك تتحدث عن السودان فتوقعنا فى أزمة مع الحكومة الانجليزية.

فصاح به الدكتور: يا سيدى نمسك عن ذكر السودان ونتكلم عن المدارس والتعليم.

قال: اذن تكون الطامة أكبر. أليس العرف قد جرى بالتمهيد بالمدارس لفتح مناطق نفوذ السياسة.

فعاد الدكتور يقول: ونمسك يا ولدى عن المدارس والتعليم أيضا، ونتكلم عن الصحة.

قال سعد باشا: وهل يا دكتور ضرورى أن نتكلم؟ أنت ذاهب للاستفتاء فى أخينا البطريرك على أنى أراك قد قبلت ورضيت وكنت منذ لحظة تأبى وترفض.

قال الدكتور: لأجل خاطرك يا باشا نفعل والله كل شيء. نقبل يا باشا نقبل ومن يصلح لها غيرنا لقد شربت القهوة فى دير السلطان، أيام الخلاف بين القبط والاحباش فأنا ابن بجدتها! ولاجل خاطرك يا باشا نذهب الى أقصى مكان».

وقد تسيغ أن يزجى زعيم كبير كسعد، وقت فراغه أو استجمامه، بمداعبة أو معابثة الدكتور محجوب وإن اتخذ موضوع المداعبة أمرا من أمور الدولة. ولكن قد تجد صعوبة كبيرة فى أن تقبل أن يتخذ رئيس مجلس النواب سعد باشا زغلول، من إحدى جلسات المجلس

الرسمية والعلنية مجالا للدعاية والترفيه عن نفسه ونفس بطانته، وأن يوزع على أعضاء المجلس أدوارا فى اللعبة التى وضعها فيقوم كل منهم بدوره، ويلقى كلاما يثبت فى محضر المجلس ظاهره الجد، وباطنه العبث. وتفصيل هذه الواقعة أن الدكتور «محجوب» انتخب عضوا- كما قلت- بمجلس النواب سنة ١٩٢٦ عن إحدى دوائر الاسكندرية، فتقدم طعن فى صحة انتخابه، فأوعز سعد الى أعضاء لجنة الطعون أن يتباطأوا فى تقديم تقرير الطعن الى المجلس (١) لتظل نيابة الدكتور معلقة لأطول مدة ممكنة، و «لتكون مسألة الطعن مادة رسمية للدعاية يستمدونها من احراج مركز الدكتور (٢)، ويزيد فى البلية، أنه كان معروفا ومتداولا- بين جميع النواب- أن الطعن المقدم لم يكن جديا بل كان أمرا مدبرا من أصدقائه وأحبائه أنفسهم، ولما أن أوان الانتهاء من هذه الدعاية التى اتخذ المجلس واحدى لجانه الهامة ميدانا لها، تحددت جلسة ٦ من يوليو سنة ١٩٢٧ لنظر الطعن واتفق سعد مع كبار الوفديين أمثال حمد الباسل باشا ومحمود فهمى النقراشى باشا وعلى أيوب بك، أن يوزعوا على أنفسهم أدوار المؤيدين للطعن، والمؤيدين لرفضه، وطلب اليهم الا ينظروا الطعن الا فى جلسة يرأسها هو، وعلم فى الليلة المحددة المتفق عليها أن المجلس بدأ ينظر فى الطعن الاول، فانتقل من

---

(١) كتاب الاسرار العباسية- لصالح على عيسى السودانى- ص ١١٢

(٢) المصدر نفسه.

مكتبه بمجلس النواب الى قاعة المجلس ليشهد هذه المسرحية المضحكة، وليؤدى دوره فيها، وراح المؤيدون يتكلمون، والمعارضون يردون، ومحجوب ثابت، يعانى من الضيق والقلق، ما أحتاج معه سياسى كبير هو النقراشى، أن يروح له بجريدة وقد جلس خلفه فى المجلس ثم انتهى هذا المشهد كله، برفض الطعن، وحمل الدكتور على الاعناق الى مقصف المجلس، حيث احتفل بنجاحه. ويقول مؤرخ حياة الدكتور محجوب أنه قال له أنه كان يعلم أن الامر كله كان مزاحا، وأنه تغابى وتظاهر بالتصديق ليتمتع الباشا الزعيم واخوانه ولكن هذا الذى جرى فى جلسة الطعن المقدم ضد الدكتور محجوب ثابت، كان يمثل فلسفة حياة الدكتور محجوب، فقد كانت مزيجا متوازيا من الجد والهزل، وكان الهزل فيه أقرب الى الجد منه الى العبث، فسعد وان أطال أمد تعليق صحة انتخاب الدكتور محجوب ليستمد منها مصدرا للضحك الا أنه فى واقع الامر لم يكن سعيدا بانتخاب الدكتور محجوب وفوزه على مرشح سعد نفسه، وقد علقت الصحف البريطانية على هذا الفوز بأنه علامة من علامات التحول عن سعد. وكان الدكتور محجوب يقول كلاما فى السياسة، وفى الاجتماع، وفى الاقتصاد، فى السودان، والجيش، ونقابات العمال، والطيران، والصحة، ما يزعج المسئولين، ولكنه كان كلاما صادقا وموجعا ومطلوبا، ولم يكن ثمة وسيلة لتمريره، والاستماع اليه، الا أن

يكون هزلا فى قالب الجد حينا، وجدا فى قالب الهزل حينا آخر، ليستطيع الدكتور أن يعيش وأن يتكلم وأن يبقى فى ميدان السياسة ولكنه لو أصطنع الجد وأبى الا أن يستمع الناس له، فى أدب ووقار، وأن يردوا عليه فى صدق واحترام، لوقع الجميع فى حرج، ولوجب أحد أمرين: أما أن يسكت الدكتور محجوب برضاه، واما أن يسكتوه عنوة بالحبس والاعتقال أو التشهير والمطاردة.

وقد بقى الدكتور محجوب هكذا كالمهرج فى بلاط الملك، يقول وحده الحق، ويقوله كاملا، حاسما، ويقوله بلا تزويق، ولا مداراة، محتميا فى ثوب المهرج، بالحصانة المسبغة على المهرجين طوال التاريخ.

ولكن هذا المهرج الذى صنعه مجتمع ما بعد اجتهاض ثورة سنة ١٩١٩، وتحولها الى حزب داخلية أولا، ثم الى مسابقة ودية بين العائلات الكبرى فى البلاد الموزعة على الاحزاب فيها، على كراسى الوزارة والمجالس النيابية، هذا المهرج قال ما كان يجب أن يقوله الساسة الجادون.

على أننا إذا نسينا أو تناسينا قليلا، الجانب المؤسى من حياة الدكتور محجوب ثابت، أو على الاصح حياة المجتمع المصرى بعد سنة ١٩١٩ وخيبة الامل التى قضت بها البلاد فى أعقابها، فإننا، واجدون فى حياة محجوب ثابت الجادة المتعددة الجوانب، الفوارة

بالحيوية، وفي كل الكلام النافع الذى قاله، وفي كل البذور التى ألقاها بغزارة بكلتا يديه، انا واجدون فى هذا كله عزاء أى عزاء.

بدأ محجوب ثابت حياته العامة، وهو فى مقتبل العمر، مع الحزب الوطنى الذى كان بدوره فى شبابه فالتقى شبابهما معا، فتبادلا ما لدى كل منها من حرارة وآمال عريضة، وميل عنيف للمقاتلة وتحدى الاوضاع القائمة، ونرى اسم محجوب ثابت فى أكثر من مجال من مجالات الحزب الوطنى، ولم يكن محجوب ثابت هو الطبيب الوحيد الذى انضم الى الحزب الوطنى وعمل معه، بل كان واحدا من جماعة غير قليلة من شباب الاطباء نذكر منهم [1] احمد عيسى ومصطفى حسن مورو، وفوزى أبو السعود، ومحمد كمال، وسيد شكرى، وحافظ عفيفى ونصر فريد علوى الذى كان عضوا فى اللجنة الادارية للحزب، ومما يستوقف النظر أن أكثر هؤلاء الاطباء، استمروا عاملين فى الحياة العامة، وإن تفرقت بهم السبل، فمنهم من وصل الى منصب الوزارة كحافظ عفيفى، وسيد شكرى فقد عمل أولهما وزيرا على الخارجية، ثم رئيسا لمجلس ادارة بنك مصر، فرئيسا للديوان الملكى، فى حين عين الثانى وزيرا للزراعة لمدة قصيرة، واستمر نصر فريد يمارس مهنة الطب دون أن تنقطع صلته بالحركة الوطنية. ولكن لم يسلك واحد منهم مسلك محجوب ثابت، فهو وحده الذى كان

---

(١) أمين عز الدين– الهلال يوليو ١٩٦٩

نشاطه مع الناس، لا يستطيع أن يبقى فى مكتبه أو عيادته أو داره. فهو مع العمال وبينهم، يحضر اجتماعاتهم، وينتخب- كما سيأتى حالا- عضوا فى مجالس نقاباتهم أو نقيبا لهم، ثم هو كالنخلة، يخرج من دار جريدة الى دار أخرى، ومن نادى حزب الى حزب ثان، ومن اجتماع سياسى، الى ندوة ادبية، ثم هو لا يكف عن الكتابة.

وقد عرف الناس أول ما عرفوا دراساته الاجتماعية السياسية، حينما عقد الحزب الوطنى مؤتمره الاول فى بروكسل عام ١٩١٩.

فقد كان هذا المؤتمر نموذجا للعمل السياسى الحزبى فى أعلى مراتبه. فلم يكن سوقا أدبية يتنافس فيها الخطباء فى عرض بلاغتهم اللفظية ولا قدرتهم البيانية. انما كان ندوة بحث وعلم ودراسة. وقد دعى اليها ساسة كبار اشتراكيون واحرار أمثال (كير هاردى) الزعيم العمالى البريطانى، (هاينرش هومر) الالمانى وأغلب الظن أنه لولا هذه البداية الموفقة لما اتجه محجوب ثابت اتجاهاته العمالية والاصلاحية التى ملكت عليه حياته، وبقيت حافزه الدائم حتى الوفاة قدم محجوب ثابت لهذا المؤتمر دراسات مشكلات هامة وخطيرة بقيت تهز مجتمعنا وتؤرق المفكرين عندنا سنين طويلة مثل: تنقية مياه الشرب، وارتفاع معدل وفيات الاطفال فى مصر، وتطور تعليم الطب فيها. ولو راجعت محاضر جلسات مؤتمر الحزب الوطنى سنة ١٩١٠ (١) لرأيت خصائص محجوب ثابت واضحة جلية، فهو شديد

(١) مجلة الطليعة فى شهرى ابريل ومايو ١٩٦٩

الرغبة فى الكلام، وهو محتج على عدم اعطائه الكلمة. ولكن المجال الذى أتاحه له الحزب الوطنى، هو العمل مع العمال سواء فى مدارس الشعب الليلية التى أقيمت لتعليم العمال، ومكافحة الامية، وتربيتهم الوطنية، أو فى نقابة الصنائع اليدوية التى أنشأها الحزب فى ١٩٠٩، فى هذه النقابة، تبرع بمعالجة العمّال أعضاء النقابة وأفراد عائلاتهم وخطب فيهم، ودرس من خلال مشكلاتهم وأوضاعهم، أوضاع بلاده الاجتماعية والاقتصادية، وتلقى دروساً فى السياسة الوطنية المجدية المثمرة الفعالة، ثم قامت الحرب البلقانية بين تركيا، وبلغاريا، وكانت فكرة الجامعة الاسلامية تسود التفكير السياسى المصرى آنذاك، لذلك تنادت الدول العربية بوجوب نصرة تركيا فى حربها ضد أوروبا، وعلت الدعوة لارسال أطباء يتطوعون فى الهلال الاحمر التركى، وسرعان ما لبى محجوب ثابت هذه الدعوة، وسافر الى البلقان، معلنا عن فضائله القويمة التى كانت لا تمسح له بأن يفكر ولو للحظة فى مستقبله المادى، أو مستقبله الادبى كمدرس فى كلية الطب، أو مكانته من أقرانه، كطبيب صاحب عيادة. ولابد أن هذه الرحلة زادت من أفقه السياسى اتساعا، وعلمته مالم يكن يعلم من أمور الدول والحروب.

ونشبت ثورة سنة ١٩١٩، وكان اذ ذاك صاحب عيادة فى حى السيدة زينب، بشارع الكومى غير بعيد من المدرسة السنية للبنات،

يعرفه الناس. بلحيته وعصاه، وسعيه بينهم ولكم رأيته يسير، وحوله جماعة من انصاره أو العاملين معه. فكان زعيما بحق يقوى ايمان الناس بالثورة، ويثبت أقدامهم على الجهاد.

واحتاج الوفد– الذى آلت اليه زعامة ثورة سنة ١٩١٩– الى مال ينفقه فى سبيل الدعو، للوفد، ويرى بعيني رأسه طبقات الشعب على اختلافها وهى تتنافس فى التبرع وسمع النساء فى أقصى الصعيد يزغردن وهن يخلعن حليهن من أيديهن. ففاضت سعادته، وأطلقت لسانه بالجليل من الخطب.. وأقيمت المنابر فى الازهر والسيدة زينب، وفى الشوارع والاندية، وفى كل مكان فوجد محجوب ثابت فى هذه المنابر، أمنيته التى طالما تاق اليها خلال سنى حرب سنة ١٩١٤– ١٩١٨ الطويلة الثقيلة التى حبس فيها كل صوت، وعقل كل لسان، وسادتها ظلمات مادية وروحية وعادت نقابة ابصنائع اليدوية التى أنشأها الحزب الوطنى سنة ١٩٠٩ الى الحياة بعد أن حلت فيما حلته السلطة العسكرية البريطانية من النقابات والاندية والروابط.

أما النشاط الثورى بكل صوره، من إعداد المنشورات وتوزيعها وتنظيم الاجتماعات والدعوة اليها، والتصدى لدعايات خصوم الحركة، وتجميع الشبان، والخروج على رأس المظاهرات، فقد تولاه البطل العظيم عبد الرحمن فهمي، ومعه أركان حربه، الذين كان منهم

أو فى مقدمتهم محجوب ثابت، وأمين الرافعى، وكلاهما من أبناء الحزب الوطنى، ولم يكن انتماؤها للحزب الوطنى، ليحول بينهما وبين الخوض فى معامع الثورة، والقاء نفسيهما فى نارها المتقدة، بل أن هذا الانتماء، هو حافزهما الاصلى الى تصدر صفوف الثوار. ولو كانت زعامتها لرجل لم يكن من أبناء الحزب الوطنى، فقد عمل الحزب الوطنى وعمل محجوب وأمين لهذه الثورة، قبل شبوبها، أكثر مما عمل أى حزب أو مجموعة أخرى من الرجال.

ولكن الثورة لم تلبث أن خمدت حينما عادت زعامتها الرسمية من أوروبا، بعد سنتين كاملتين، فان هذه الزعامة لم تقو على رفع لواء الثورة، وغلبت عليها طبيعتها ونظريتها الى الامور، وصلاتها بالقصر الملكى وبالانجليز، وضعف إيمانها بالشعب، وكراهيتها للنشاط الثورى الذى لا يسمح لمواهبها فى المناقشات اللفظية أو المفاوضات السياسية، للظهور والتألق.

وبقيت صلة محجوب بالعمال وأن أراد الوفد أن يطويهم تحت جناحه، فأسند اليه عبد الرحمن فهمى مهمة إنشاء اتحاد عام لنقابات العمال، ولم يكن من بأس على الحركة العمالية أن يتولاها عبد الرحمن فهمى حتى ولو كانت زعامته لهذه الحركة تحت زعامة الوفد، لولا أنه كان مستحيلا أن يستمر التعاون بين عبد الرحمن فهمى وسعد زغلول، فهما من طبيعتين مختلفتين، وكان التعاون

بينهما قائما، حينما لم يضمهما ميدان واحد.

واختفى أيضاً محجوب ثابت، بل إنه كان أسوأ حظاً من عبد الرحمن فهمي، الذى رشحه لدائرة عابدين فى انتخابات سنة ١٩٢٤ ونسى محجوب ثابت فلم يرشح ولم ينتخب.

ولكن محجوب ثابت بقى على صلة دائمة بالعمال ونقاباتهم، يحارب الاحزاب من أجلهم، ويريد أن يكون لنقاباتهم واتحاد هذه النقابات، كيان قائم بذاته عن الاحزاب التى كانت بعد الثورة- قد دخلت فى دور من المبارزة الشخصية، تستعمل فى سبيل أهدافها الخاصة كل سلاح، وتضحى من أجلها بكل عزيز ولو كان هذا العزيز مصلحة الوطن نفسه.

وقعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ حادثة قتل السردار لى ستاك باشا، وقبض على عدد من الشبان، الذى اتجهت النية الى أنهم هم الجناة، وسافر محجوب قبيل هذا الحادث الى سوريا وقد ضاق بالمنازعات الحزبية، ومؤامراتها الصغيرة وبتفتيت وحدة الوطن وبانطفاء جذور الثورة.

وسقطت وزارة الوفد التى رأسها سعد زغلول، فى شهر نوفمبر عقب حادث القتل، وجاءت وزارة لتصفى البقية الباقية من ثورة سنة ١٩١٩، واتخذت لنفسها شعار (إنقاذ ما يمكن إنقاذه) وهو شعار صادق تماما لأن الغاية من هذه الوزارة- التى أسندت رياستها

لاحمد زيور باشا- كانت انقاذ ما يمكن انقاذه لبريطانيا لا لمصر، وللقصر، لا للشعب.

وانسحب سعد زغلول الى عزلة، ثم رأت بريطانيا أن الوقت قد حان لإقامة نظام هادىء على أنقاض كل ما دعت اليه الى ثورة سنة ١٩١٩، فقام فى سنة ١٩٢٦ اختلاف بين الخصوم الألداء، أى بين سعد والوفديين من جهة، وعدلى والاحرار الدستوريين من جهة أخرى، ونسى الوفد للمرة الثانية أن يوشح محجوب ثابت، ولكنه رشح نفسه مستقلا فى دائرة كرموز بالاسكندرية سنة ١٩٢٦

ورشح الوفد ضده أحد اتباعه، ولكن محجوب نجح، وإن استمر طوال المعركة الانتخابية يعلن أنه على ولاء لزعيم الامة، وكان مثل هذا التنازل أساسيا ليستطيع أن ينجح أو ليخفف حدة المعركة الانتخابية ويلطف نارها.

وعلى منبر البرلمان، اسمع محجوب البلاد كل ما كان يدور فى خلده، وما يساوره من الاحلام فتحدث عن الجيش والطيران، وعن الصحة، والمستشفيات وعن التعليم، والتأمينات الاجتماعية، وعن استقلال القضاء وحماية حقوق المؤلفين، وإنشاء نقابة الصحفيين، وتوليد الكهرباء من خزان أسوان وتحويل القمامة الى سماد.

ولا شك فى أن هذا الذى قال، وإن كانت لا تنتظمه وحدة، الا أنه كان فى مجموعه برنامجا اصلاحيا شاملا، وكان برنامجا مطلوبا،

وإن كان فى هذا البرنامج عيب، فعيبه الوحيد أن محجوب ثابت كان يقوله وحده ولا يجد سندا من حزب، ولا من جريدة ذائعة، تتلقف أراءه فتتبناها وتؤيدها، وتبدىء القول وتعيده فيها، فضلا عن أن البرلمان فى ذلك العهد كان لا يقوى على مواجهة هذا الفيض المتدفق من المشروعات. والاقتراحات وأن كان برلمان الائتلاف أى برلمان سنة ١٩٢٦، كان من أفضل ما شهدته مصر من مجالس نيابية.

وقد جاد الزمن بفرصة أخرى لمحجوب ثابت تشبع حبه للحركة العمالية، تلك هى اللجنة الحكومية المشكلة برياسة عبد الرحمن باشا رضا وكيل وزارة العدل (الحقانية) لوضع مشروع قانون للعمل والعمال، فقد ضم محجوب ثابت الى اعضاء هذه اللجنة، فقال كل ما يعرفه عن العمل والعمال، وعن النقابات بحقوقها، ثم استمع الى الجديد فى ذلك الشأن فزاده ذلك أحاطة بهذا الجانب المحبب الى نفسه، القريب من قبله.

ثم كسدت الحياة السياسية، أو زادت كسادا، بعد أن فشل الائتلاف الحزبى بوفاة سعد زغلول فى أغسطس سنة ١٩٢٧، وباقلة الوزارة الوفدية التى تلت انهيار هذا الائتلاف وكانت برياسة مصطفى النحاس، الذى آلت اليه أيضا زعامة الوفد.

واختفت كل المعانى الوطنية الكبرى، وهبط التناحر الحزبى الى

أدنى الدرجات، فزاد انحسار نشاط محجوب ثابت، ثم ثقل عليه الامر بوفاة أصدقائه ومحبيه وفي مقدمتهم جميعا أحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، ولم يعد الناس يعرفون محجوب ثابت الطبيب الذى طال هجره لعيادته، وكان لا بد له من وظيفة فلما عرض عليه إسماعيل صدقى باشا وظيفة كبير أطباء الجامعة قبلها ولكنه كعادته استطاع أن يستخرج من هذه الوظيفة، نشاطا يتفق مع طبيعته ويوائم مزاحه، فقد اتصل بشباب الجامعة، ودعا الى التدريب العسكرى وسافر مع رحلاتهم وبعوثهم الرياضية، ولست أنسى رحلة من رحلات الجامعة إلى فلسطين وسوريا ولبنان فى سنة ١٩٣٢ ومحجوب ثابت على رأسها يعيش بين شباب الجامعة من لاعبى كرة القدم وادبائها وشعرائها أمثال عبده حسن الزيات وعبده أبو شقة، كان يعيش بينهم كواحد منهم يجلس معهم لا يتميز عنهم قط فى شىء وكان الامر يدعو أحيانا إلى هرولة فيهرول وإلى ركض فيركض والى تصفيق وهتاف فيصفق ويهتف ويحضر نداوتهم فلا يتحرجون من وجوه بينهم ويهرجون على سجيتهم ويضجون ويصخبون، كان كالأب حقا يعود مريضهم ويشجع المتفوق منهم ويطرى خطيبهم وشاعرهم ولم أحس لحظة أن هذا الرجل الذى اقتصر نشاطه على هذا المجال الصغير- مهما كان هذا المجال عظيم الاثر فى المدى البعيد والذى كان خطيب ثورة، وكاتبا ذائع الصيت حزينا كاسف البال لأن مجده زال

أو لأن ميدان العمل أمامه ضاق لان زملاءه الذى يصغرونه فى السن والذين تتلمذوا عليه قد سبقوه الى المناصب الكبرى فان منهم زعيم الحزب ورئيس الوزراء - وأقلهم كان وزيرا. وأنه بقى فى آخر الركب لم تظفر حتى بتحقيق أمله المتواضع فى أن يكون وزيرا للصحة، كان كالطفل الكبير بكل خصائص الطفل البرىء النشيط، الضاحك السعيد بوجوده فى الجماعة وبالحركة واللعب والمرح واللهو.

وقد وصفه صديقه محمد كرد على العالم السورى وعضو المجمع العلمى بدمشق، قال:

«كان أديبا بكل معانى الاديب من منازع شريفة، ما سمعته يطعن على أحد، وقد آذوه غير مرة أما هو فقد علمه بيل شيمته أن يصفح الصفح الجميل ويقيم من نفسه الأعذار لأرباب الشذوذ والنشوز لا يبادر إلى تخطئة أحد الا اذا نفد صبره ورآه قد عبث بمصلحة عامة، كل ذلك من دون أقذاع وتحامل يقدر الجرم بقدره فهو طبيب شرعى حقا وصدقا».

«وكان الى التفاؤل، أميل منه الى التشاؤم، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور، ويصمد للحوادث فى أحرج ساعاته، لا يتأنف ولا يسخط مهما ألحت عليه الاوجاع، ويحمد الله على ما ابتلاه وأنقذه مما تجنيه الطبيعة من آلام هى أشد مما وقع له..

ولقد بقى محجوب ثابت حتى آخر لحظات حياته، يتكلم ويناقش

ويقترح فقد كان يراجع طبيبه المعالج الدكتور سليمان عزمى باشا، وهو على فراش الموت، يلفظ أنفاسه، مما أحرج الطبيب الكبير أن يقول لمريضه:

«يا محجوب أنت الآن مريض ولست طبيبا».. لكن أنى لمحجوب أن يسلم بالامر الواقع، وأن يقبله.

***

ولما فاضت روح محجوب، وعلم بالنبأ صديقه محمود فهمى النقراشى، وكان إذ ذاك وزيرا للداخلية أو للمعارف – أعلن الوزير الحداد فى وزارته – ودعا جميع الموظفين إلى تشييع جثمان هذا البطل الذى خرج من الدنيا بلا ولد ولا زوجة، ولا مال، ولا منصب، وقال «اليوم لا عمل... اليوم يوم محجوب»....

فكان ذلك كل ما ظفر به محجوب ثابت، بعد طول العناء...!!

المحتويات

أصدرت مطبوعات الهيئة :

1 – أشهر الأوبرات (مترجماً)	د. محمود الحفنى
2 – إسحاق الموصلى	د. محمود الحفنى
3 – الموسيقى العربية	د. محمود الحفنى
4 – ياللى ع الترعة ، حوّد ع المالح	رشا رفعت شاهين
5 – صور أدبية	على أدهم
6 – صور تاريخية	على أدهم
7 – العرب فى إسپانيا	على الجارم
8 – الأرض والمياه والإنسان	جماعة تحوتى للدراسات الاجتماعية
9 – الوتر المشدود «محمد عبد الحليم عبد الله»	زغلول عبد الحليم عبد الله
10 – وقائع استشهاد اسماعيل النوحى	سمير ندا

11 – حوارات المستقبل	د. السيد أمين شلبى
12 – فصول عن حقوق الطفل	عبد التواب يوسف
13 – محمد ﷺ مواقف من السيرة النبوية	فتحى الإبيارى
14 – شموس فى سماء الوطن	محمد الشافعى
15 – تأملات فى الأدب والفن	د. صبرى حافظ
16 – توفيق الحكيم .. بين عودة الروح وعودة الوعى	عبد الرحمن أبو عوف
17 – شافع ونافع	فتحى رضوان

رقم الايداع : ٩٨/١٦٥١٤

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦


